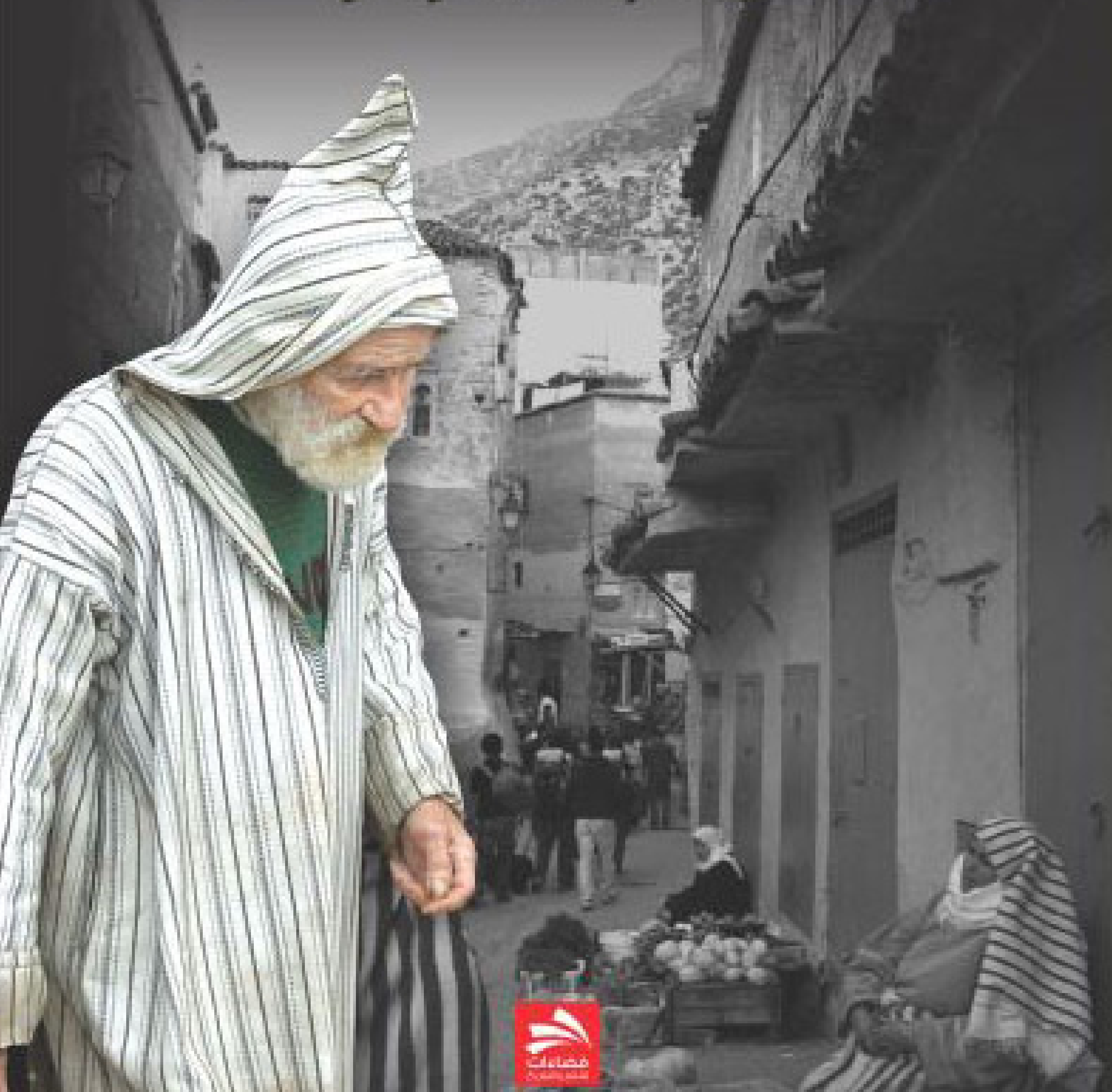
رواية

جابر خليفة جابر

مخيم الموارکة



مُخيّم المُواركة

رواية

جابر خليفة جابر

ISBN: 978-9957-30-273-3

الطبعة الأولى: 2012

مخيم المواركة – جابر خليفه جابر . - الأردن

دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي

عمان- شارع الملك حسين-مقابل سينما زهران

تلفاكس: 4650885 (6 –962+) هاتف جوال: 911431/ 777(962+)

ص.ب 20586عمان 11118 الأردن

Dar_fadaat@yahoo.comE.mail:

http://www.darfadaa.com Website:

التوزيع في تونس:

فضاءات للنشر والتوزيع – فرع تونس

شارع الهادي نويرة. النصر -II تونس 2037

تلفاكس: 21 65 82 70 (216+) – الجوال 39 42 29 98 (216+)

E.mail: fadhahet @yahoo.com

http://www.darfadaa.com Website:

إعتراف

لأن عمار إشبيليو، هو من أرسل هذه الرواية كاملة إلى بريدي الإلكتروني:

(jabir_kh@yahoo.com)

ولأنه -كما اعترف بنفسه - نقلها عن راوٍ آخر، من أسلافه، عاش قبل أكثر من أربعة قرون، واسمه، عمار إشبيليو، أيضا.

ولأن عمار إشبيليو الأول ذاك، هو الآخر ليس المؤلف الحقيقي للرواية، كما ذكر حفيده، عمار إشبيليو الأخير عنه.

ولأن عمار إشبيليو الأول لم يذكر لنا بالتحديد من هو مؤلف الرواية، المسمى ب حامد الأندلسي، هل هو شقيقهُ حامد بن قمرين، أم هو حامد بن كناري أخته؟

وغير هذا، لا أحد يعلم كيف اجتازت الرواية مئات السنين لتصل إلى عمار إشبيليو الأخير؟

لهذه الأسباب مجتمعة، ولكي لا يضيع القارئ في متاهة البحث عن المؤلف، قررت أن أدعي تأليف الرواية، وأضع اسمي على غلافها.

أحمـد رودميـرو

...بـودي أن أتحـدث لـك أيضـا عـن الـدكتور رودمـيرو، أحمـد رودمـيرو، شخصـية جذابـة، سـتعجبك كثـيرا، إسـباني كـاثوليكي، تعـرف عـلى الإسـلام منـذ عشرـين عامـا، ثـم أسـلم، في الأصـل كـان مـن سـلامنكا القريبـة مـن البرتغـال، لكـن أصـوله موريسـكية، عـلى مـا أظـن مـن إشـبيلية، جنوب الأندلس...

قالـت لـه أمـه حـين رأتـه يقـوم بحركـات غريبـة كأنهـا رأتهـا مـن قبـل: أمـادو ماذا تفعل؟ وكان هذا اسمه الإسباني.

-أصـلي مامـا، أصـلي المغـرب. تحـدث لهـا مـن قبـل عـن عودتـه لـدين الموريسـكيين، قـال أمـوراً كثـيرة لم تفهـم أغلبهـا، لكنهـا تحـب أمـادو، ابنهـا الوحيـد، والحركـات التـي رأتـه يؤديهـا ظنّتهـا أوّل الأمـر نوعـا مـن الرياضـة، لكـن نقـاط ضـوء صـغيرة تلامعـت في ذاكرتهـا مـن بعيـد فسـألته: أمـادو مـاذا تفعل؟..

ثم قال لها: ماما أرجوك سميني أحمد وليس أمادو، بليس ماما.

-أوه أمـادو.. كنـت وأنـا صـغيرة متعلقـة بجـدك، أحبّـه جـدا أمـادو، ولم أكـن أفارقـه، حتـى إنّنـي كنـت أتـرك أبي لـيلاً لأنـام في حضـنه وأعبـث بلحيتـه البيضـاء المشـذبة، كنـت أتبعـه أينـما ذهـب، ولم يكـن ذاك يضـايقه إلا عنـدما ينـزل إلى القبـو، كـان يـتخلص منـي برفـق ويغلـق البـاب خلفـه، لكنـي إذا

عرفـت أنّـه في القبـو، لم أكـن أفـارق البـاب وكنـت أبـذل جهـدي لأقـف عـلى أطـراف أصـابعي كـي أراه مـن شـق المفتـاح، وحـين نجحـت لأول مـرة، رأيتـه وسـط الشـق الصـغير تمامـا، رجـل كبـير كجـدي في شـق المفتـاح الصـغير، حـير هـذا الأمـر عقـلي آنـذاك، ومـا حـيرني أيضـا الحركـات الغريبـة التـي كـان يؤديهـا وعينـاه دامعتـان، أمـادو مـا كـان جـدك يقـوم بـه مـن قيـام وانحنـاء وقعـود، يشـبه مـا فعلتـه قبـل قليـل، كـان يلصـق جبهتـه بـالأرض أيضا، ويبكي، يا إلهي هذا يعني أنّه كان يصلي المغرب أيضا.

-صـديقي هـذا مـا حكـاه لي الـدكتور رودمـيرو نفسـه، شـخص لطيـف أتمنـى لقـاءك بـه، يبـدع الشـعر والقصـص وعـازف كيتـار، كـان مولعـا بالموسـيقى أكثـر، ومولعـا بالتجريـب في الأدب أيضـا والبحـث الـدائم عـن الجـدة والغرابـة في مؤلفاتـه، حتـى قـاده اهتمامـه بالموشـحات الأندلسـية إلى أقصى أعماقـه، أقصى أعـماق القلـب كـما يعـبر أحمـد رودمـيرو نفسـه، حيـث كـان الإسـلام مختبئـا وخائفـا مـن محـاكم التفتـيش، الحكايـة طويلـة صـديقي، سـأمدك بالمزيـد، أعـرف أنـك مـتعطش، المهـم أنّـه أسـلم مـذ ذاك، أشـهر إسلامه وحج إلى مكة المكرمة.

سـنلتقي غـدا بـإذن الله، أعـترف أني كسـول في الكتابـة مـن قبـل والآن كسـول في الطباعـة أيضـا، لـذا سأختصر، ولـولا أني أحبـك أيّهـا الموريسـكي الـذي لم أره، لمـا أتعبـت نفسي، أنـت تثـير محبتـي، إلى لقـاء آخـر، عـبر النـت طبعا، وأعتذر عن كسلي.

عمّـار إشبيـليـو

هــذه إحــدى رســائل عديــدة كــان- عــمار إشــبيليو - وهــذا هــو اســمه أرســلها لي بمبـــــادرة منــــــه. أدهشــــــتني أولى رســــــائله، لا أدري لمــــــاذا خــــــاطبني بالموريســكي، تفاصــيل كثــيرة يعرفهــا عنــي، بعضــها يعــود لأيــام الطفولــة، يعـــرف اســـم مدرســـتي، مدرســـة الأنـــدلس الابتدائيـــة للبنـــين، وموقعهـــا بالتحديــد ذكــره لي، عــلى ضــفة شــط العــرب، قــرب جــامع الفضــلي في الفــاو يوم كانت عامرة بأهلها.

حتــى إنّــه ذكــر الكوســج المحــنط والمعلــق قريبــا مــن مكتــب مــدير مدرســتنا، أدهشــتني معرفتــه بهــذه التفاصــيل عنــي، لا أدري كيــف عرفهــا، إلا أننــي لم اســتغرب كثــيرا تحدثــه عــن الكتــب التــي قرأتهــا عــن تــاريخ الأنــدلس وشــعبها، مــدجَنين وموار كــة تحــت ســطوة قشــتالة وأراغــون وغيرهــا مــن الممالــك الكاثوليكيــة الشــمالية، مــن الواضــح أنــه عــرف ذلــك مــن دخــولي للمواقــع المهتمــة بالشــأن الأندلسيــ، ولهــذا ظــن -عــمار إشــبيليو- إني مــن أصـــول موريســـكية جـــاءت إلى الخلـــيج العـــربي والبصرـــة مـــع الســـفن البرتغاليـــة أيّـــام الاحـــتلال الإســـباني للبرتغـــال، قـــال إن الآلاف مـــن الموار كـــة فعلـــوا هكـــذا، وأبحـــروا متخفـــين تحـــت قنـــاع النصرـــانية إلى الهنـــد والســـاحل الأفريقـــي وقـــد اكتشـــف البـــاحثون أنَّ مقـــابر العديـــد مـــن القـــرى في أمريكـــا اللاتينية تتجه إلى القبلة.

وعـــزز ظنـــه قـــائلا: ألم تســـأل نفســـك يومـــا لمـــاذا أدخلـــك أبـــوك في مدرســـة اســـمها الأنـــدلس مـــع أن مدرســـة أخـــرى كانـــت أقـــرب منهـــا إلى داركـــم؟ لا شكّ أن أباك كان موريسكيا مخلصا رحمه الله.

لا أدري إنْ كـــان موضـــوع بعـــد المدرســـة عـــن بيتنـــا صـــحيحاً أم لا، لكننـــي اســـتغربت معرفتـــه بهكـــذا تفصـــيل. وكـــان رده أنّـــه يتـــابع كـــل مهـــتم بمأســـاة شـــعبه الأندلسيـــ ويحـــب أن يعـــرف كـــل شيء عنـــه، وأضـــاف: لم أنـــت منـــدهش؟ شـــعب الأنـــدلس أحبّـــه يـــا أخـــي، أحـــب الموريســـكيين، رضـــعت حـــبهم وحكايـــاتهم طـــوال طفـــولتي، لم يـــترك أبي أي حكايـــة أو حـــدث يعرفـــه إلا وقصـــه عـــلي ولا شيء أحـــب إليّ مـــن ســـماعها، بـــل لا حيـــاة لي الآن مـــن دون استرجاع تلك الحكايات وتنفسها.

هـــذه الحكايـــات تقطـــر ألمـــاً ومـــرارة وإنســـانية، وهـــي التـــي جمعتنـــا معـــا كصـــديقين، أنـــا والـــدكتور رودمـــيرو، حتـــى إنّنـــا بعـــد تعارفنـــا لا نكـــاد نفـــترق إلا لنلتقي ثانية.

مـــع أنّ للـــدكتور رودمـــيرو- أو أمـــادو كـــما يحلـــو لمواطنيـــه الأســـبان تســـميته - انشـــغالات كثـــيرة، فهـــو عضـــو ناشـــط في إحـــدى المـــنظمات المدافعـــة عـــن حقـــوق الإنســـان في مدريـــد، وهـــو وإنْ كـــان مســـتقلا إلا أنّـــه شـــارك في الحمـــلات الانتخابيـــة بقـــوة لصـــالح مرشـــحين يعتقـــد بقـــربهم مـــن توجهاتـــه التـــي تـــتلخص بضرـــورة تخلـــص إســـبانيا الملكيـــة الديمقراطيـــة مـــن الظـــلال الســـوداء المخجلـــة لعهـــد الجنـــرال فرانكـــو وسياســـات قشـــتالة القديمـــة ومـــا

ارتكبته من مجازر وإبادات جماعية للشعب الأندلسي وللعديد من الشعوب في الأمريكيتين، وآسيا وإفريقيا كذلك، ويرى أنَّ الاعتذار الملكي من اليهود أمر جيد لو أنّه شمل غيرهم، خاصة وأنّ ما تعرضوا له أقل بكثير مما تجرعه الأندلسيون وهنود المايا والأزتيك والآخرون .

يصف الدكتور رودميرو ذاك الاعتذار بالبراغماتية السلبية التي تسيء لوطنه إسبانيا أكثر مما تنفع، باختصار صديقي، إنّ رودميرو يدعو إلى مجتمع متسامح متعدد الألوان والثقافات التي تتلاقى معا لرسم اللوحة الأروع لفنان إسبانيا العظيم، وهو الشعب الإسباني - كما يقول - بكل أطيافه وثقافاته المتلاقحة عبر التاريخ، وغالبا ما يقول لأصدقائه وتلاميذه وزائريه:

إنَّ مقولة فرانكو الشهيرة (في إسبانيا عليك أنْ تكون كاثوليكيا أو لا تكون أي شيء) باتت من الماضي وعلينا أن لا ندع لها أي حيز مهما كان صغيرا، لا في أفكارنا ولا أقوالنا ولا في أيّ من أفعالنا وسلوكنا مع بعضنا ومع الآخرين.

هل يكفيك هذا تعريفا بالدكتور أحمد رودميرو؟ أتركك اليوم، لأحدثك بعدها عن مخيمنا، انتظرني.

أول المخيـم

قبـل عـام تقريبـا – يقـول عـمار إشـبيليو – وخـلال أحـد لقاءاتنـا الطويلـة المتكـررة – كـل يـوم تقريبـا – ولـدت فكـرة المخـيم، مـن صـاحبها أنـا أم رودمـيرو؟ لا أدري، لكنـه بـاشر بالسـعي لتنفيـذها في ذات اليـوم وتحقـق لنـا نحـن جماعـة مـن الموار كـة الشـباب ذاك الاجـتماع الجميـل، بعـض الموريسـكيات كـن معنـا وأيضـا أسـاتذة وطـلاب أسـبان وقيـل إن أديبـا أرجنتينيـا ومثقفـين مـن أمريكـا اللاتينيـة حضـروا لعـدة أيّـام، كـما تكـرر حضور كاتب هولندي وزوجته...

اسـمع صـديقي، جلسـات عديـدة بصـحبة الـدكتور أحمـد رودمـيرو سـبقت انبثـاق مشـروع المخـيم، لا أحـلى منهـا غـير أيـام المخـيم نفسـها، جمعتنـا هـذه الجلسـات لسـاعات، قـرأت عليـه بعـض مـا كتبـت، كانـت قصاصـات سرد تتضمن ما يشبه الشعر...

حين قرأها سألني: شعر؟

قلـت كوكتيـل مـن الشـعر والسـرد وربـما الرسـم أيضـا، مـن كـل باقـة وردة أو أكثر.

وأسمعته العديد منها..

أفرحنـي انشـداده، لا تتصـور كـم فرحـت وأنـا أراه منشـدا لمـا أقـرأ وكـان دامعا.

ورسمنا تلك الليلة- أول أيام 2009- بعد أربعة قرون من قرار الإبعاد الدامي، رسمنا برنامج المخيم، وكان حافلا وغريبا بمساراته..

المطرودون إلى البحر

المطرودون إلى البحر تسحلهم إليها، شمس فالنسيا، تبقى من ثيابهم، سيتماوج البحر.. ثمة وهران في الأفق، والطريق إليها، سيغرق أيضا، خلفهم، في نهر الوادي الكبير – ربما – ستغرق الأندلس.

مخيّم المواركة

أقمنا مخيمنا الجوال في أماكن عدة، عسكرنا أولاً في غرناطة ثم أبعد قليلا على سفوح جبل البشرات وانتقلنا إلى ضواحي إشبيلية، جنوبها إلى جانب الطريق إلى قادس، وعلى ضفاف نهر شنيل عدة مرات، هنا وهناك، وتوقفنا – من دون أن نخيم – عند نهر حيدرة على مشارف غرناطة..

رغب بعضنا بالنزول تجاه المرية أو قرطاجنة لكن هذا لم يتحقق، أما المرة الأخيرة فقد كانت في غرناطة طبعا، وفي حي البيازين تحديدا، ثماني أو تسع مرات غيرنا مكان المخيم وكان تعبنا لذيذا، وقد أدركنا متأخرين أنّ الدكتور رودميرو أراد لتنقلاتنا أن تحاكي حالات الطرد المختلفة، وللاقتراب أكثر من مشهد البحر، عبرنا بالقوارب نهر شنيل ونهر حيدرة وعمل الجميع بالمجاذيف، صدقني لقد تم إلقاء اثنين منا في الماء وهم في دهشة وغضب، لكن المخيم كله أدرك السرّ ـ لهذا، قدر الكثير من المواركة أن يلقوا في البحر، هكذا علق أحدهم وانتشرت المشاعر المختلفة من ضحك وانشراح إلى وجوم وحزن واستحضار للمأساة، إحدى الموريسكيات كانت تبكي، اسمها على ما أتذكر "مارتينا" وكان اثنان من الضيوف أحدهما إسبانياً يقومان بتصويرها، بكت وسط أضواء الكاميرات، مشهد مؤثر فعلا، ليتك كنت معنا يا صديقي.

المخيم بشكله وتنقلاته وطريقة توزيع الخيام القريبة إلى الفوضى والتشتت أريد لها أن تحاكي عمليات الطرد الوحشية التي تعرض لها شعب كامل بمختلف انتماءاته وأطيافه، أما الثيمة الأساس لفكرة المخيم فهي اجتماعاتنا أو حفلاتنا القصصية والتي ابتدأت بأن يطرح أيّ مشارك ما يعرفه من حكايات الموراركة بجمل مكثفة، كتلك التي تبادلتها مع الدكتور رودميرو، يمكن أن أسميها قصاصات سردية أو حبات قصصية..

أربعون حبة أو قَصاصة أو قُصيصة، لنقل أربعون جملة سرد مركزة وأزيد عرضت على المشاركين، ليقوم أحدهم أو أكثر بالانطلاق من أي جملة والتوسع فيها ضمن آفاق الخيال المنتمي إلى واقع كان معيشاً، وبمعنى آخر، بسط الواقع الموريسكي المتخيل ورسم مشاهده.

وزعها الدكتور رودميرو على جميع الخيام بعد أن جمعها منها، وقال لهم ليختر كل منا جملة، جملتين، لا يهم، ولنعبر عنها بحكاية ويمكن الاستعانة بأيّة وسيلة إبداعيّة الشعر أو الرسم وحتى الموسيقى، الإبداع هو المبتغى وخصوبة الخيال..

إقـفـــال

القـــذارة عـــلى جسر ـــ قرطبـــة،وحمامات الموريســـك التســـعمائة أغلقـــت.. ثبتـــي شـــمعك الأحمـــر جيـــدا يـــا قشـــتالة.. نســـاؤك وحـــدهن لـــن يغـــير الإغـــلاق، في أجسادهن حالا.

لا أدري إن كانـــت هـــذه البـــذرة القصصـــية لي أو للـــدكتور رودمـــيرو أو لآخـــر مـــن رواد المخـــيم.. ينبغـــي أن تتـــذكر أننـــا جميعـــا شـــاركنا في إعـــداد وكتابـــة هـــذه الجمـــل المكثفـــة، لقـــد اشـــتركنا حتـــى في كتابـــة الجملـــة الواحـــدة، كلمة من هذا أو ذاك، حتى نستقر على الصياغة الأخيرة لها.

أحد الشباب علق على جملة (إقفال) لكن باختصار:

فـــرح

بعـــد ســـلامة الوصـــول إلى الـــبر المغـــربي نقطـــة الفـــرح الوحيـــدة للموريســـكيات الجمـــيلات هـــي حمـــام بعيـــد - عـــن الأنظـــار- ليغســـلن أدران قشـــتالة ولـــو بـــماء البحر..

نحـــن وزعنـــا القصاصـــات- آميكـــو- أو الجمـــل المكثفـــة عـــلى الجميـــع، مـــع أننـــا جميعنـــا شـــارك في إبـــداعها وحـــول القصاصـــة كتبـــت تعليقـــات عـــدة، أذكـــر لك منها ما كتبه مشارك آخر بعنوان:

ختم

على شمع الباب الخشبية كان الختم بهيئة المسيح المصلوب كانت الأقفال أكبر.. حين تمر الموريسكيات – بباب الحمام – يتلفعن جيدا بعباءاتهن، ولا يتذكرن.. سوى انتعاشة الماء، وغير خوابي الحنة.

أما المشاركة السردية الأولى فكانت من الخيمة الثامنة التي تضم خمسة أشخاص أصولهم من مدن متقاربة، تيرويل وكوينكا، وثلاثة من فالنسيا، وهي ميناء على المتوسط.

كانت مشاركتهم قصيرة وأحداثها مختزلة حين نشروها أول مرة، لكنهم عادوا مرارا لتطويرها، واشترطوا أنْ تنشر بنسختها الأخيرة وليس مجزأة كما هو الأصل، وهذا وإن جرى خلاف برنامج المخيم، لكن الإدارة اضطرت للموافقة بعد أن استطلعت آراء الجميع، بما فيهم الضيوف والزائرين.

تجربة الاستطلاع كانت ممتعة، وكانت مشاركتهم بعنوان "بستان الحرير"

قال أحد الضيوف وكان شاعرا أرجنتينيا اسمه خوليو سوريس:

إن الأقفال، وهو عنوان القصاصة السردية، تثير عند القارئ انثيالات شتى، منها السجن والمطاردة ومصادرة الحريات وتكميم الأفواه ومنها أنها تعني هنا، القبض على الحمّامات وإلقاءها في السجن، تخيل حمامات

بأبنيتها ومغاطسها وروادها ملقاة داخل الزنازين، تخيل ذلك، هذه قراءتي كشاعر، أما كلمة الحرير فقد أسرَّ في أذني صديقي أمادو (يقصد الدكتور أحمد رودميرو (أنّ حروفها وصوتياتها قريبة من كلمة حرية بالعربي، وهذا يؤيد قراءتي، أنّ بستان الحرير وفقا للعربية يعني بصورة ما السعي للتحرر من الأقفال بصناعتها القشتالية الثقيلة على القلب والمتقنة..

بستان الحرير – آميكو- هو عنوان لما نشرته الخيمة الثامنة انطلاقا من جملة "أقفال".

بستان الحرير

أراد مــارتينو أنْ يجيــد التقشــتل ويتقنــه مرتعبــا مــن مصــير حــل بأبيــه عــلى يــد رجــال محكمـــة التفتـــيش في إشـــبيلية، فخـــرج إلى قرطبـــة ومنهـــا إلى فالنســـيا مبتعــدا عــن كــل معارفــه الموريســك، واســتقر بهــا مســتعينا بــما يملــك لشرــاء بيت وبستان حرير ليس بعيدا عنه.

وهنـــاك بـــالغ الموريســـكي مـــارتينو بإظهـــار نصرـــانيته، أغلـــب أصـــدقائه قشــتاليون، كــما أنّــه بــدا قشــتاليا أكثــر مــن القشــتاليين أنفســهم، لا يتحــدث إلا بالقشـــتالية ويضـــمن كلامـــه ازدراءً وتجريحـــا لكـــل مـــا هـــو موريســـكي وغــير كــاثوليكي، كــان مواظبــا كــل أحــد عــلى الــذهاب للصــلاة في الكنيســة، وحــرص دائــما عــلى الظهــور العلنــي في الأســواق أيّــام الجمعــة وخــلال أعيــاد المســـلمين المعروفـــة لـــئلا يـــتهم بالصـــلاة سرا في بيتـــه كـــما هـــي تهمـــة كـــل موريســـكي لا يأكـــل لحـــم الخنزيـــر أو يتغيـــب عـــن الكنيســـة، بيـــده نقـــش مــارتينو علامــة الصــليب عــلى قمصــانه، ثــم مثــل دور الحــب مــع شــقراء يبــدو أنّ دم الفـــايكنغ المجـــوس يلـــوح في قســـماتها المتوحشـــة، فعـــلا كانـــت جميلـــة بشـــقرتها وملامحهـــا الجرمانيـــة - كـــما تقـــول الحكايـــة - وقـــد انخـــدعت بـــه، كــان شــابا أســمر فارعــا ووســيما، ملامحــه تشيــ بــالقوة والرجولــة، لكنــه بعــد أن أوقعهـــا بشـــباكه لم يـــدم تمثيلـــه معهـــا طـــويلا، إذْ وفي أوّل خلـــوة لهـــما لم يســـتطع تحمـــل قربهـــا ولا قبلاتهـــا، ســـليلة الفـــايكنغ تلـــك لا يـــرى المـــاء جســدها، لم يطــق رائحتهــا، والنهــر حيــث تســتحم القشــتاليات أحيانــا بعيــد

عـن بيتهـا، وقبـل أن يعـود زوجهـا مـن البحـر تـوارى صـاحبنا الموريسـكي وتهرب من إلحاحها.

آميكـو، صـديقي، أكـاد أرى اسـتمتاعك بـما تقـرأ، تأمـل هـامش - أروى- وهـي معلمـة مـن تـونس، أصـولها مـن بلنسـية، لكنهـا مـن خيمـة قرطاجنـة، انظر هامشها:

نهايات

لم تـذكروا خاتمـة الحكايـة يـا إخـوة، لا شـكّ أنّهـا مؤلمـة، هـل مـر انسـحاب الموريسـكي مـن صـاحبته بـلا عقـاب؟ لا أظـنّ، خاصـة في ظـروف كتلـك، الغلبـة فيهـا للمـرأة، والانتقـام لهـا متـاح، ومـع أنّ النهايـة كـما ذكـرتم محتملـة، لكنني أرسم أكثر من نهاية مختلفة للقصة..

نهاية 1

في الأيّـام الأولى مـرّ الحـادث بسـلام، بيـنما كانـت الشـقراء تبحـث عنـه، فقـد أدركـت أنّـه تركهـا متعمـدا وتعلـق بـأخرى أجمـل منهـا، فظلـت تتقصى أخبـاره وسـعت للانتقـام منـه، لكـن مـارتينو كـان قـد اختفـى عـن الأنظـار وهـو ينـوي - كـما توقعـت الشـقراء - أنْ يـرتبط بقشـتالية غيرهـا ليـذوب أكثـر في المجتمـع الكـاثوليكي ويبعـد عنـه شـبح المحـاكم، يقـال إنّـه ظـل يحلـم بهـذا حتـى بعـد خمـس سـنوات مـن الحكـم عليـه بالعمـل سـخرة عـلى سـفن الأسطول الإسباني.

"لا شكّ أنّ مارتينو وهو يحلم لم يكن يشعر بسياط البحارة الإسبان تلهب ظهره العاري خلال التجذيف"

هذه تعليقة ليست لأروى لكن صاحبها لم يكتب اسمه.

نهاية 2

إنّ الجميلة الشقراء وبحسّ الأنوثة المرهف لاحظت اشمئزازه منها فشكته لزوجها أو أبيها العامل في ديوان محكمة التفتيش مدعية أنه يتحرش بها، ولهذا قبض عليه والتحق صاحبنا بأبيه، لم يعلم مارتينو بالشكوى، فقد داهمه الجنود ليلا ودفعوا الكمثرى الخشبية في فمه لئلا يصرخ، وبين السحل والضرب، رموه في حوض عربتهم ومضوا، ومنذ ذاك، لم تر الشقراء مارتينو ولم يسمع بأخباره أحد..

هناك شائعات تقول إنّ وكيل الكاردينال زمنيز قضى بأن يزف مارتينو إلى السيدة العذراء الجميلة في تابوتها المرعب، وهناك في حفل الزفاف الرهيب انغرزت المسامير من كل صوب ومزقت جسده وبقي ينزف، قطرات قطرات حتى استراح، وكانت الكمثرى لم تزل تغلق فمه الدامي.

نهاية 3

إنّ زوجهـا البحـار تجاهـل شـكواها أولاً، لكنـه بعـد أنْ علـم أنّ المتحـرش موريسـكي، اسـتغل الأمـر للاسـتيلاء عـلى كـل مـا يملكـه مـارتينو، أي داره وبستانه الذي يضم 400 شجرة توت والآلاف من دودة الحرير..

ومـع أنَّ مـارتينو المسـكين تنـازل عـن أملاكـه إلا أنّ النـاس في فالنسـيا تجمعـوا بعـد أسـبوع ليشـهدوا حفـل إحراقـه حيـا لهرطقتـه وارتـداده عـن الدين.

وبيـنما كانـت هـذه الحكايـة تعـرض عـلى الخيمـة الرابعـة، خيمـة الجزيـرة الخضـراء وفيهـا لاجـئ سـياسي مـن العـراق وثلاثـة مغاربـة، أضـيفت هـذه الخاتمة الموحية بتهكمها ومرارتها..

نهاية 4 (لشمُرشكُش)

في أول عنـاق ملتهـب صـدمت رائحتهـا الزنخـة مـدمن الحمامـات هـذا فـانكمش وافتضـح أمامهـا.. لم تحتمـل الجرمانيـة الإهانـة فشـتمته بالقشتالية:

-كـافر لُشمُرشـكش، ورفعـت يـدها بوجهـه، لكنـه وهـو الأندلسيـ صـفعها مـرارا إلى أن توزعـت جسـده سـيوف الجنـود الثلاثـة الـذين هبـوا لنجـدتها، لقد نجا الموريسكي من المحرقة .. مبروك.

حكايـــة إغـــلاق حمامـــات قرطبـــة جـــذب اهـــتمام الخيـــام كلّهـــا، ســـأروي لـــك حكايات أجمل، انتظرني ..محبتي

عمّــار إشبيـليـو

أهـــلا صـــديقي الســـلام علـــيكم، حكايـــة حلـــوة هـــذه أو مـــرة، لا أدري، أنـــت تقـــدر، اقرأهـــا، هـــم في خيمـــة إشـــبيلية، الخيمـــة السادســـة، أعـــادوا كتابـــة القصيصة أو جملة السرد، أعادوا صياغتها وقدموا نصين مختلفين قليلا:

صياغة أولى

" القذارة على جسر قرطبة

وحمامات الموريسك، لا حيطان لها..

داكنة أرديتك قشتالة

ونسوتك، لم لا يغتسلن؟ "

صياغة ثانية

"أخرجي حمامات الموريسك،

من توابيتك،

وجسر قرطبة أيضا،

أرديتك داكنة قشتالة،

فأبدليها بألوان الأندلس،

وعودي فتياتك على الاغتسال"

ثـــم أضـــافوا حكـــايتهم الجميلـــة التـــي تلاقفهـــا المخـــيم بسرـــعة وابتهـــاج، وكانت بعنوان:

مايوركا

اســـمه الأندلسيـــ كـــريم، يتهـــامس بـــه الموريســـكيون سرا فـــيما بيـــنهم، أمـــا كاسياس فهو الاسم الذي عمدوه به في الكنيسة الكاثوليكية..

كـــريم كاســـياس لم يكـــن في قرطبـــة عـــام 1567 حـــين أصـــدر ملـــك إســـبانيا فيليـــب الثـــاني قـــراره بـــإغلاق حمامـــات الموار كـــة، لأنهـــم كـــما تقـــول الكنيســـة المقدســـــة يســـــتخدمونها للوضـــــوء والصـــــلاة المحمديـــــة سرا، في قشـــــتالة وغيرهـــا مـــن ممالـــك إيبريـــا لا أحـــد يبنـــي الحمامـــات العموميـــة أو يرتادهـــا غـــير الموريســـكيين، كـــان الشـــماليون كلـــما تراكمـــت القـــذارة واضـــطروا للاســـتحمام فـــإنّ ميـــاه الـــبرك والجـــداول تكفـــي، لم يعرفـــوا الصـــابون ولا المناشـــف المنسوجة من القطن ولا الدلاكات، هذا فقط، من شؤون الموار كة..

كـــان كـــريم كاســـياس في إشـــبيلية، نـــما وهـــو يـــرى أبـــاه ينقـــل الحطـــب إلى الحمامـــات شـــتاءً، أمـــا في أوقـــات الحـــر وانتفـــاء الحاجـــة للحطـــب، فـــإنّ بعـــض

أصـــحاب الحمامـــات يســـتخدمونه لتقـــديم الشرـــابات للزبـــائن كنـــوع مـــن المســـاعدة لـــه، وكـــان كـــريم بعـــد أن شـــب وتـــولى العمـــل بـــدلا عـــن أبيـــه يشـــعر بـــالحرج مـــن هـــذا، فبـــدأ بـــتعلم صـــناعة الـــدمى وبيعهـــا في الوقـــت المخصـــص للســـيدات الموريســـكيات اللـــواتي كـــن يصـــطحبن أطفـــالهن للاســـتحمام، لم يكـــن مـــا يربحـــه كافيـــا في الصـــيف، لكـــن مـــا يكســـبه وقـــت الـــبرد مـــن نقـــل الحطـــب وبيعـــه لحـــمام الســـيدة قمـــرين أكثـــر مـــن حاجتـــه، قمـــرين هـــذه كانـــت تعطيـــه أجـــورا مجزيـــة، وكانـــت تكلفـــه أيضـــا بالاعتنـــاء بأقنـــان حمائمهـــا عـــلى ســـطح الحـــمّام، وكـــان الاهـــتمام بـــالطيور يريحـــه، طالمـــا ألـــح وهـــو صـــغير عـــلى والـــده أن يشـــتري لـــه حمامـــات بـــيض ليربيهـــا ويلهـــو بهـــا، لكـــن أبـــاه كـــان يـــرفض ويقنعـــه بشرـــاء حاجيـــات أخـــرى أو لعـــب، ويتهـــرب مـــن إجابـــة طلبه..

كـــان توريـــده للحطـــب مقتصرـــا عـــلى حمـــام الســـيدة قمـــرين ولم يكـــن يتعامـــل مـــع غيرهـــا مـــن أصـــحاب الحمامـــات في إشـــبيلية وهـــم كثـــيرون، وكـــان يتهـــرب مـــن الإجابـــة إذا ســـأله أحـــدهم عـــن ســـبب تمســـكه بالعمـــل في حمـــام قمـــرين فقـــط، وكـــان يقضيـــ أغلـــب أوقـــات فراغـــه إذا كـــان وقـــت الاغتســـال مخصصـــا للرجـــال بالتواجـــد عـــلى الســـطح مـــع الطيـــور، أمـــا في الصـــيف فقـــد كـــان يكتفـــي بنحـــت الـــدمى وبيعهـــا، لكـــن قـــرار الإغـــلاق الملكـــي طبـــق بسرـــعة وقـــوة، لـــيس في قرطبـــة فقـــط، بـــل في كـــل منـــاطق قشـــتالة، حتـــى إنّهـــم عنـــدما اقتحمـــوا حمـــام قمـــرين كـــان كـــريم كاســـياس يقـــوم بـــإنزال حمولـــة الحطـــب فتناوشـــوه بـــالركلات وأخـــذوا حمارتـــه مايوركـــا، هكـــذا يســـميها، ولم

يعيدوها إليه، سيراها بعد شهر وهم يحثونها بالسياط، هزلت كثيرا مايوركا وكان يتألم لحالها، ونسي ولعه بالحمائم حزنا عليها، حتى إنّه وبعد أن غدت صناعة الدمى مهنته الوحيدة، نحت دمية جميلة على شكل حمارته أولا، ثم بعد عدة تجارب أخذت الدمية من دون أن يقصد شكل ظبية وادعة وجميلة، نحتها من أغصان الزيتون الطرية وسماها مايوركا تعاطفا مع حمارته، وبعد أيام قلائل من شروعه ببيع نماذج من دميته اشتهرت وذاع صيتها بين الأطفال وراجت مبيعاته، ولما ازداد عدد زبائنه حاول أن ينحتها من أخشاب أخرى غير الزيتون للعجلة وكثرة الطلبات فلم يقدر، لم تطاوعه أنامله ولا أزاميله، ارتبطت مايوركا بأغصان الزيتون الطرية وارتبط شكلها الجميل بخضرتها الخفيفة وباسمها، مايوركا..

كان يصبّغها بالحناء التي رخصت كثيرا وتوفرت بعد منع الموريسكيات من التزين بها، ويحلي عنقها بقلادة خرز ملون واستخدم صمغ الأشجار ليلصق على رأسها عصابة محلاة بالأزهار، كما تفعل الأندلسيات عادة، كما جعل لكل مايوركا يدين بعشرة أصابع ناعمات، ونحت لها قدمين ورديتين وليس أظلافا، وثمة خاتم أو أكثر في يد كل دمية، كانت الخواتم مزينة بفصوص من الأحجار والزجاج الملون، وأجمل ما يجذب النظر إلى المايوركات، أنظار الرجال والنساء معا، هو الخال الأسود اللماع المنقوش على خد كل مايوركا، فكان مع جفونها المدهونة بصبغة يتراوح لونها ما بين الزرقة والبياض، كلون الفضة تقريبا، يظهر

المايوركا وكأنها عروس موريسكية أنهت للتو حمامها استعدادا للزفاف، وكان كريم يُلبس المايوركا خمارا شفافا وجلبابا طويلا ليستعيد ما كانت النسوة في الأندلس يرتدينَ من زي إسلامي وما يتزينَّ به من حلي وأصباغ قبل أن تطبق قرارات المنع الأخيرة لفيليب الثاني، لكنه كان يحرص على إظهار مهاراته بعرض بعض المايوركات وهن سافرات ليستمتع المارة بجمال صناعته، ويجمل الباقيات كالأندلسيات تماما بالخمار والعباءة والسراويل الطويلة الزاهية، فيثرن الإعجاب وفضول الناظر أكثر..

مارانوش

ثلاثة من أطفال الموريسك كانوا فرحين بشراء أحدهم مايوركا، أثار فرحهم عطف كريم كاسياس فأعطاهم واحدة أخرى مجانا، تقافز الصغار مبتهجين وتضاحكوا، ويبدو أنهم لم يستطيعوا الصبر حتى يصلوا إلى دارهم، فأخذوا جانب الدرب بعد قليل وباشروا اللعب وتقليب الدميتين بدهشة الطفولة والبراءة تشع من وجوههم، في ذات الوقت كانت امرأة ترتدي زيّاً أراغونيا تمر قريبا منهم وهي تمسك بيد ابنتها الصغيرة التي ما إن رأت المايوركا حتى انفلتت من أمّها وركضت تجاه الأطفال وتبعتها أمها تهرول خلفها، هذا المنظر للمرأة وهي تركض وتتعثر وللطفلة وهي تتعارك وتحاول بيأس أنْ تأخذ الدمية من يد الصغير القوية، هذا المنظر أثار ضحك مجموعة من الجنود كانوا واقفين قرب أحد الرهبان الدومينيك، كانت الأم تحاول منع ابنتها من العراك والجنود يضحكون حين همس لهم مارانوشي قريب منهم:

هؤلاء الصغار الملاعين من الموريسكوس سادتي.

وهنا تغير كلّ شيء، توقف الضحك، وقطب الراهب جبينه، تحرك الجنود وضربوا الأطفال فهربوا مذعورين، ثم توقفوا على مبعدة، ليروا مصير المايوركا التي انتزعت منهم وأعطيت للبنت، أما المايوركا الأخرى فقد ترافست بها أحذية الجنود وقهقهاتهم حتى تحطمت..

لم يكـــن يســـتطيع التـــدخل، كـــان كاســـياس يـــرى الأطفـــال ويـــرى حبيبتـــه المايوركـــا وقلبـــه يعتصر، ومنـــذ تلـــك الحادثـــة لم يعـــد كـــريم يســـمي نفســـه كاســـياس، ولم يعـــد لنحـــت أغصـــان الزيتـــون، لقـــد اعتكـــف في بيتـــه زمنـــا، ثـــم - كـــما يقـــول بعـــض الموارك‍ـــة- خـــرج إلى الأحـــراج المحيطـــة بإشـــبيلية وهـــو يتأبط سيفا صنعه بمطرقته.

"قيل إنّ هذا سبب توقف كريم عن نحت دميته المحبّبة " .

أكاديميـــة موريســـكية وزميلـــة لهـــا مـــن بلبـــاو كانتـــا في خيمـــة اســـمها، خيمـــة الزهـــراء، ربـــما حملـــت هـــذا الاســـم اعتـــزازا بقصر الزهـــراء أو لأنّ الموريســـكية كان اسمها زهراء، هذه الخيمة رسمت نهاية مؤلمة لكريم..

المغـارة

تــرك نحــت المايوركــات وخــرج بســلاحه إلى الأحــراج الكثيفــة وإلى الجبــال، ومــن هنــاك كــان يــتربص بــدوريات الجنــود القشــتاليين ويصــطاد مــن ينفــرد مــنهم عــن جماعتــه، وقيــل إنّــه كــان يكتــب عــلى جســد كــل قتيــل كلمــة مايوركــا بحــروف الخميــادو التــي لا يعــرف الكتابــة بغيرهــا، حتــى ضــجت إشــبيلية بــما يفعــل وكانــت الأمهــات القشــتاليات ينــومن أطفــالهن وهــن يخــوفنهم بكــريم كاســياس، أو كاســياس مايوركــا، ويقــال إنّ المــارانوشي ذاتــه الــذي وشــى بالأطفــال هــو مــن تــرجم للســلطات معنــى الكلمــة الموشــومة عــلى أجســاد القــتلى، وهكــذا غــدا كــريم كاســياس مطلوبــاً، فاســتنفرت دوريــات عديــدة حتــى تمكنــوا أخــيرا مــن محاصرتــه في مغــارة صــغيرة لكــنهم عجــزوا عــن الــدخول عليــه لضــيق فتحــة المغــارة ولأنــه كــان يقتــل كــل مــن يقــترب منــه، فعمــدوا إلى تكــويم الأغصــان اليابســة في بــاب المغــارة وأشــعلوها فكــاد أنْ يختنــق واضــطر للخــروج علــيهم بســيفه، لم يتمكنــوا مــن أسره كــي يحــرق حيــا كــما هــي الأوامــر، وهكــذا ســحلوه قتــيلا إلى إشــبيلية وعــلى الطريــق كانــت الأعشــاب الطريــة تصــطبغ بدمــه، كأنهــا تتحنــى بــه كــما تفعــل الموريســكيات، وأحرقــت جثتــه ومنــذ ذاك لم يســمح لأيّ طفل أن يلهو بالمايوركا..

"أشــارت ملاحظــة مــن خيمــة الزهــراء أنّ لهــذه المســاهمة صــلة بالجملــة القصصية التالية "

أغلقوا المغارة عليهم بالنار والدخان سمع الجنود سعالهم والصراخ فتضاحكوا وفجأة، انفلتت راكضة، أم شابة ورضيعها لكنهم في الخارج، وكانوا يرقصون..قطعوهما بسيوفهم.

ما أقول لك صديقي، هكذا هي حكايات الموريسك، هل هي جميعا محزنة؟ لا أدري..

ولا أظن أن أحداً يدري، أرجوك اقرأ هذه الجملة القصصية قبل أن أذكر لك نهاية أخرى لكريم كاسياس، نهاية اقترحتها خيمة البشرات.

"عندما اختطف القشتاليون الأربعة ابنته طاردهم بخنجره، ثمة خيول اندفعت، أربعة عشر ربيعا يا إلهي وكان قتيلا حين رآها إلى الأبد".

تقول خيمة البشرات:

هناك من يقول إنّ اختطاف هذه الفتاة الصغيرة من يد أبيها، ثم قتله بوحشية وفرح، أمام ابنته وأمام الناس علناً، هو الذي دفع كاسياس للتوقف عن نحت المايوركات والصعود إلى الجبال، لكننا لا نملك وثائق تؤيد هذا الخبر، وما نحن واثقون منه، أنَّ ما حدث للأطفال مع الجنود والمرأة الأراغونية لم يكن هو سبب توقف كريم عن نحت المايوركات والاختفاء، هذه الحادثة وقعت فعلاً، كما تذكر مخطوطة تنسب إلى حامد بن قمرين الأديب الأندلسي البارع، لكن المخطوطة ذاتها في موضع آخر، قبل نهايتها بأربع صفحات، تقول:

قبل ساعة من غروب يوم حار من أيام يوليو، كان كريم كاسياس يلملم بسطته فقد نفذت كل المايوركات التي نحتها اليوم، حينها وقفت على رأسه فتاة جميلة في سنّ المراهقة يبدو عليها أنّها من بنات النبلاء أو رجال الدولة، وكانت تمتطي فرسا، وأحد العبيد من الموريسكوس المحكوم عليهم بالرق، كان يمسك بلجام الفرس، قالت لكريم بتعال وغرور:

-أنت موريسكوس، ما اسمك؟

"لم يرتح لأسلوبها"

-كاسياس سيدتي.

-اسمك الكامل؟

-كاسياس رودميرو سيدتي.

-أين مايوركاتك، لا أراها؟

-نفذت سيدتي.

-اسمع، اصنع لي مايوركا جميلة جدا، أحلى واحدة، اجعلها تشبهني، هل أنا جميلة موريسكوس؟

-جميلة جدا سيدتي.

-أنا أجمل أم مايوركاتك هذه؟

-بالطبع أنت أجمل سيدتي.

"وتصاعدت دقات قلب كريم ، ما تريد منه؟ دعا الله أن ينقذه من شرها وتغير لونه".

-ما بك؟ هل أنت خائف أم بهرك جمالي؟ قل.

-أنت جميلة سيدتي قلت لك، فقط أنا مرتبك لتكرمك بالوقوف عند بسطتي المتواضعة هذه.

-إذن اصنع غدا مايوركا مثلي، ولا تبع أي واحدة للموريسكوس، مفهوم؟

-مايوركا مثلك؟ "هنا تغيرت لهجة كريم قليلاً ولم يخاطبها بسيدتي" ولكنني لا أعرف نحت غير هذه المايوركا، ولا يستطيع أحد غيري نحت أجمل منها.

"اندهشت الفتاة من تغير لهجته وغضبت"

-موريسكوس، حقير، قل سيدتي، ورفعت سوطها في الهواء.

فتفاداه كريم وصرخ بوجهها..

-أنت وأجدادك الحقراء، الموريسك هم الذين علموك كيف ترتدين ثيابك يا بنت البرابرة، بصق تجاهها وغاب عن الأنظار..

"علق بن قمرين في ذيل الخبر أن كريماً أراد تأديبها، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة لأنها امرأة"

وأضافت الخيمة ذاتها - بعد ساعة - تتمة للحكاية..

تألم كريم كثيرا لما حل بالعبد الموريسكي الذي كان يقود فرس الفتاة، إذ عذبوه بالدواليب الدوارة ليدلهم على اسم كريم ومكانه وهو يصرخ ويقسم، لا أعرف، توسل إليهم بالسيدة العذراء وبالطفل المسيح، لكن لا أحد يصغي، شدوا يديه وقدميه إلى أربعة دواليب، كل دولاب يسحبه إلى جهة وشدوه، حتى أغمي على المسكين وتمزق جسده قطعاً أربعاً..

لهذا خرج كريم إلى الأحراج المحيطة بإشبيلية زمنا، ثم شارك في ثورة الأندلسيين بعد عام من قرار فيليب بإغلاق الحمامات، كان قائدا شجاعا وقتل خلال معركة في جبل البشرات قريبا من غرناطة، وثمة زيتونة معمرة ما زالت إلى الآن تظلل المكان الذي دفن فيه، وإلى الآن المزارعون الإسبان يتبركون بهذه الزيتونة الوارفة ويسمونها مايوركا من دون أن يعرفوا سبب التسمية.

وعلقت الخيمة: إنّ غرناطة أحقّ من غيرها بكريم وسنثبت هذا بحكاية أخرى.

لكن خيمة إشبيلية لم تتقبل ما ذكرته خيمة البشرات وادعاءَهم بكريم ووزعت هامشها:

ما ورد في النهاية المقترحة للحكاية من خيمة البشرات أثار دهشتنا لأنّه تضمن خطأ فنيا واضحا يظهر منه أنّ الخاتمة كانت مختلقة، لأنّ كريماً أعلم المراهقة القشتالية باسمه: كاسياس، فلماذا يسأل المحققون عن اسمه؟ كما أنه معروف، فهو الوحيد الذي كان يبدع نحت المايوركات ويبيعها، ووقتها لم يبدأ أحد بتقليده، هذا حصل بعد وقت طويل وكان الناس يميزون بسهولة بين مايوركات كاسياس الأصلية كما يسمونها وبين النسخ المزورة للآخرين، فلماذا يحتاجون لتعذيب العبد الموريسكي؟

إنّ الثابت لدينا أنّ حامداً ابن قمرين أديبنا المبدع ذكر أنهم عذبوا الموريسكي المستعبد، بتهمة التواطؤ مع كريم كاسياس على إهانة القشتالية، لكنهم لم يقتلوه، بل عوضوا السيد المالك له بموريسكي آخر وأرسلوا هذا مقيدا إلى برشلونة للعمل مدى الحياة على السفن الملكية في الأرمادا..

وقالت السيدة المخولة للتحدث باسم خيمة إشبيلية: إنَّ لدينا ما يؤكد أنّ كريماً بقي مرابطا قريبا من إشبيلية حتى استشهد رحمه الله، وسننشر هذا قريبا.

لم نكن نتوقع، لا الدكتور أحمد رودميرو ولا أنا، أنْ يتشعب السرد بهذه الطريقة، وقال رودميرو غامزا (كأنه هو من رتب ما يجري) ألا يذكرك تنافسهم بهذا الشكل بملوك الطوائف وصراعاتهم حتى استعانوا بالشماليين على بعضهم؟

سيحاصرنا الوقت إذا استمرت حكاية كريم ومايوركا بهذه الطريقة، وسنعجز عن تناول الأقصوصات الأخرى وهي كثيرة، لكنه استرسال سردي مدهش شدنا وانجذب الجميع إلى متعاته.

أراسلك غدا إن شاء الله، أشعر بالإرهاق، للتذكير فقط، وعدت خيمتا "البشرات وإشبيلية" بإضافات موضحة لوقائع الحكاية، حكاية المايوركا. وفوق هذا ستقدم خيمة إشبيلية، حكاية جديدة وجميلة كما يقولون ..محبتي

بعد يومين أرسل – عمار إشبيليو – لي حكاية أصدرتها خيمة غرناطة تأييدا لادعاء البشرات بكريم كاسياس، وذيل رسالته بسلام حار ووعد بالمزيد من المتعة في الآتيات من رسائله:

زيت زاكاو

كاسياس الموريسكي لم يكن من أهل إشبيلية في الأصل، ولم يكن اسمه كريم أو كاسياس وإنما اسمه الأندلسي زكي، وبالقشتالية سمي زاكاو، وكان الابن الرابع لمهدي أحد ملاكي مزارع الزيتون في غرناطة الذي سمته الكنيسة الكاثوليكية، غارسيا، وقد مات اثنان من أبناء مهدي بسبب المرض، لكن الأكبر منهم، صالح أو سولينو هو من قتل على يد القشتاليين بعد أن دافع عن امرأة موريسكية حاول الجنود التحرش بها وهي في بيتها، كانت جارة لهم، وكانت الأوامر الملكية تقضي أن تبقى أبواب الموريسكيين ونوافذهم مفتوحة دائما كي لا يصلوا أو يقرأوا القرآن، فاستغل الجنود الأمر ودخلوا بيتها بذريعة التفتيش، ولما كانت وقتها وحيدة تحرشوا بها فصرخت بهم وعلا صراخها، ومن دون تردد اندفع صالح إلى بيت جارته وأدمى رؤوسهم بخشبة تسلح بها قبل أن يتكاثروا عليه ويقتلوه..

خلال أسبوع قضت محكمة الكاثوليك بأن يرسل الأب للسخرة في مزارع الملك في سانتا ياغو، على ساحل الأطلسي، ومن حينها لم يعد إلى غرناطة أبداً، كما صادروا كل مزارعه ومعصرة الزيت التي يملكها، أيامها كان زاكاو في أوائل شبابه، ولكي يعيل أمّه العجوز المنهكة عمل حطابا لعدة أعوام، كان في العشرين من عمره أو أزيد حين حمل الحطب على حمارته لبيعه كما يفعل كل يوم تقريبا، وجلب معه دورقا وفي نيته أن

يشـــتري بـــثمن الحطـــب زيتـــا للطعـــام أو الإضـــاءة، في الطريـــق إلى ســـوق القيصرـــية، نـــاداه أحـــد الخـــدم واشـــترى منـــه الحطـــب لكنـــه دعـــاه ليتبعـــه قلـــيلا إلى قصر سيده كي يعطيه نقوده..

حمّام قمرين

مما كتبه لزوجته:

قرّبت كرسيي من الشباك، واجهة الحمام قبالتي، تأملتها كعادتي كل يوم دون أنْ أمل، أفعل هذا منذ أنْ جئت إلى إشبيلية متاجرا بالتيل الهولندي والحرير اللازم لأردية النبلاء والقساوسة، أحمل اسما إيطالياً، كولاني، وادعيت التدين الكاثوليكي، عزيزتي ديانا مع تلهفي للعودة وشدة اشتياقي لأحضانك ولأنفاس كريستينا الحلوة، إلا أنّني - لا أخفي عليك - مشدود إلى الحياة هنا، هذه التفاصيل السرية لحياة الناس هنا، والتي استطعت ملاحظتها، قسوة جنود الملك ورجال الكنيسة الكاثوليك الذين يتحكمون بكل شيء وفظاظتهم مقابل أمارات الخوف والقلق التي تسم نظرات وملامح أغلب من أراهم هنا، حتى النصارى القدامى، أما الموريسكوس، فحالهم الأسوأ، انجذبت روحي إليهم، أناس ضعفاء وطيبون، مع قلقهم الواضح على كل سلوكياتهم فإنَّ البشاشة واللطافة سمتهم الأولى، كرماء جدا، ورأيت منهم في مواقف عدة وهم يساقون إلى الموت وإلى التعذيب في ديوان التفتيش المقدس شجاعة مدهشة لم أتوقعها..

وبعد أشهر من إقامتي في قشتالة وليون وأراغون، عرفت أنَّ السبب الخفي لما يحل بهم هو ذكاؤهم ونشاطهم الذي يجعلهم أغنياء بعد كل مصادرة لأموالهم، مما يعرضهم في كل مرة لمكائد الجشعين من رجال

الدولة أو الكنيسة، أمّا السبب الأهم المعلن فهو إصرارهم على التمسك بزيهم وعاداتهم وتجنبهم أكل لحم الخنزير أو تناول الخمور، والقبض عليهم متلبسين بالصلاة أو التطلع لرؤية الهلال، ديانا حبيبتي، المسلمون يتطلعون إلى الهلال لكي يصوموا، طبعا صيامهم يختلف عن صيامنا، وبواسطة الهلال عندما يرونه صغيرا جدا يحتفلون بأعيادهم..

من المشاهد التي كنت أحب التفرج عليها بين يوم وآخر، مشهد مجموعة من البنات الموريسكيات الصغيرات، كن يأتين في اليوم المخصص لاستحمام النساء إلى حمام قمرين للاغتسال، وكنت أعجب من مداومتهن على الاغتسال بين يوم وآخر مما لم أعهده في بلادنا الجميلة هولندا وفي كل أوربا، ليس وحدهن، أغلب الموريسكيين هكذا يحبون ارتياد الحمامات العمومية..

من مكاني كنت أنتظر البنات، أصابع يقطعها الظل، هو الوقت المتبقي لموعد مرورهن، منظر مختلف جماعات الموراكة التي تمر أمام نافذتي في طريقها إلى حمام قمرين تبهجني، ليتك كنت معي لتشاركيني المتعة، لكني أخشى عليك من هؤلاء القساوسة، إنهم يرتكبون فظائع بحق الناس هنا أضعاف ما فعلوه في بلادنا، عزيزتي كنت أستمتع بمشاهد وفود الموريسكيين والموريسكيات بهيئة جماعات إلى الحمام كل يوم، لكن بشكل خاص كنت أستمتع أيما استمتاع بمجيء البنات الموريسكيات، منذ رأيتهن لأوّل مرة يأتين للاغتسال في حمام كامرينا، هكذا يلفظ

الإسبان اسم كمرين صاحبة الحمام، أنا أيضا ألفظ اسمها الموريسكي بصعوبة، هي امرأة تجاوزت الخمسين، محتشمة الملابس، لا يكاد يرى منها غير جانب من وجهها، الجميع هنا يحترمونها، حتى القشتاليين، والدها ملاح شهير، شارك كولمبس في رحلته وهو أول بحار يرى الأرض الجديدة، أمريكا، وهذا سبب احترامهم له ولابنته كامرين..

لا أدري ما شدني لهؤلاء الصغيرات وجعلني أنتظر مرورهن كل يومين، ربما لأنهن بعمر ابنتنا كريستينا ومرحات مثلها، كن صغيرات لا تتجاوز أعمارهن العاشرة أو الحادية عشرة، أثوابهن فضفاضة وملونة، متعددة الألوان، زاهية ومزركشة بخيوط ذهبية وفضية وبيضاء، منظر ما لم أره عند القشتاليات اللواتي تذكرني أثوابهن الداكنة بالشتاء الرمادي الثقيل عندنا، وهذا يفسر لك سر ارتياحي للمتاجرة مع البلاد الدافئة، وما أدهشني وفاجأني يا عزيزتي، هو ما لم تكن تفعله حتى بنات بلادي، بلاد الأزهار، أنّ أغلب سيدات الموريسكوس هنا يغطين

رؤوسهن بقبعات محلاة بالورود الجميلة، أكاليل ورد، تصوري كم هو بديع أن ترى أزهارهن تحركها النسمات ويضوع منها إذ اقتربت منهن – وعادة أفعل ذلك، أعترف– عطر منعش ومريح يعيدني إلى مروج الربيع ومراتع صباي، هذه الدهشة ما زالت تلازمني كلما رأيت سيدة موريسكية تزين رأسها بالأزهار الطرية الملونة، أي ذائقة بديعة ذائقتهن نساء أندلوثيا، كل الموريسكيات صغارا وشابات وسيدات، كن أيضا

يصبغن أصابعهن وراحات أكفهن الناعمة بصبغة حمراء تشد الناظر، لا فاقعة ولا خفيفة، حمرة لم أرها من قبل، أخبرتني كامرين، أنها صبغة أوراق الحناء، يزرع القليل منها هنا في إسبانيا ونوعيته رديئة، لكن جيد الصبغة منها يجلبه التجار من مراكش وبلاد العرب الحارة.

البنات الصغيرات حينما يأتين ينشرن مرحهن على طول الطريق، من النقطة البعيدة حيث تقع عيني عليهن وإلى أن يقتربن أكثر، أسعد لحظاتي النفسية حين يصلن أمامي مباشرة، ثم يختفين في الحمام، يتراكضن ويمزحن وتتناهى إلي ضحكاتهن، حتى بدا لي أحيانا أني أحلم، كلما أراهن أتذكر ابنتنا كريستينا، بشقاوتها وشقرتها، أتذكر لعبنا معا، واحتجاجاتك إذا غبنا عنك قليلا..

أضافت خيمة إشبيلية:

" منذ أكثر من شهر وهو ينتظرهن، بين يوم وآخر يأتين للاستحمام، هكذا كل الموريسك، يدمنون المجيء إلى الحمامات، حتى الرجال..

اليوم تأخرن قليلا ثم ظهرن، أستغرب مشيتهن، كن مترددات، ينقصهن المرح، شيء من الخوف سرى حتى إليه، استشعره على ملامحهن من بعيد كما لو كان يشمه، وحيت توقفن دارت عينه إلى حيث ينظرن، أمامه عند باب الحمام، رأى مشهدا غريبا، جنودا قشتاليين وراهبين، كانوا يغلقون الحمام بأقفال كبيرة ويختمونها بطين أحمر يشبه الشمع، كانت قمرين واقفة ومذهولة حين غادروا.

عـــدد قليـــل مـــن النســـوة ابتعـــدن عـــن الحـــمام مسرـــعات، لم يـــر قمـــرين حزينـــة بهـــذه الحـــال حتـــى عنـــدما كانـــت تحدثـــه عـــن جـــدها (هـــلال رودريغـــو) ومـــا جـــرى لأفـــراد عائلتهـــا، لم تكـــن حزينـــة يومـــا كـــما هـــي الآن، وعـــلى مقربـــة وقـــف موريســـكيان بملابـــس قشـــتالية، بـــدا علـــيهما الامتعـــاض، وإلى الخلـــف مـــنهم التمت البنات الصغيرات على بعضهن، ساكنات كن وخائفات.

-سيدة كامرينا ماذا يحدث؟ نزل وسألها.

-أغلقوا الحمام، يقولون كل الحمامات تغلق بأمر صاحب الجلالة الملك.

وقالـــت بهـــدوء حـــيرني، أنهـــا لم تعـــترض قـــط وإلا ستســـاق إلى التفتـــيش وأقـــلّ مـــا أحكـــم بـــه لـــو اعترضـــت هـــو أن أبـــاع كجاريـــة وهـــذا حصـــل لـــلآلاف مـــن الموريسكيات، لذا لم أفعل شيئا ولا أحد يستطيع فعل شيء"

لم يكـــن لـــدي مـــا أقولـــه لهـــا ولا حتـــى مواســـاتها - كتـــب لزوجتـــه -، حقـــا لا أحـــد يمكنـــه مســـاعدتها إلا الـــرب، عـــدت إلى الفنـــدق لأصـــلي مـــن أجلهـــا، خطرت الصغيرات أمامي، تذكرت كريستينا، وصليت لهن أيضا.

عنـــد العشـــاء قـــال لي صـــاحب الفنـــدق: ســـنيور كـــولاني لاحظـــت تـــأثرك عنـــد إغلاق الحمام، هذا لأنك مسيحي صالح، وأضاف بحماسة:

-ســـنيور كـــولاني، لا تتـــأثّر لحـــال هـــؤلاء الموريســـك، إنهـــم أخطـــر مـــن المارانوش اليهود، أنت كاثوليكي صالح..

"لاحظـــي ديانـــا، إجـــادتي للتمثيـــل والتنكـــر، يقـــول لي أنـــت كـــاثوليكي صـــالح، الغبـــي يظننـــي كاثوليكيـــا، وكثـــيرا مـــا يحـــدثني عـــن إعجابـــه بفلورنســـا وهو يعتقد أنّي منها. "

-هـــؤلاء الموريســـكوس مخـــادعون ســـنيور، يظهـــرون بمظهـــر المســـيحيين الأتقيـــاء ويواظبـــون عـــلى الصـــلاة في الكنـــائس أكثـــر منـــا نحـــن النصـــارى القـــدماء، لكـــنهم في الواقـــع هراطقـــة ومرتـــدون، جمـــيعهم هراطقـــة، لا تثـــق بهـــم، أنـــا ســـنيور لا أثـــق بـــأي مـــنهم، كلهـــم يعبـــدون نبـــيهم محمـــداً ويقـــرأون كتابه في بيوتهم، يصلون سرا ويعلمون أولادهم صلاتهم اليومية..

أنـــت يـــا ســـيدي غريـــب لا تعـــرف هـــذه الـــبلاد وأنـــا أخشـــى عليـــك مـــن مخالفـــة إرادة صـــاحب الجلالـــة حـــين تتعـــاطف معهـــم، دعنـــي أخـــبرك أن لم تصـــدق، مـــرات عديـــدة، عشرـــات المـــرات، أوه ليقطـــع لســـاني مـــاذا أقـــول، لـــيس عشرـــات ســـيدي، بـــل مئـــات وآلاف المـــرات يقـــبض رجـــال ديـــوان التفتـــيش المقـــدس علـــيهم وهـــم يمارســـون صـــلاتهم وســـحرهم، والعديـــد مـــنهم حكـــم عليـــه بـــالحرق لأبطـــال ســـحره وشـــعوذته، هـــذه الموريســـكية كـــامرين التـــي تتـــودد إليـــك، لا تصـــدقها، أنـــا أعـــرف عنهـــا الكثـــير، جـــدها كـــان كـــافرا ومـــن أعـــداء الـــدين، حتـــى إنّـــه اخفـــى احـــد أعـــداء المســـيح مـــن المـــارانوش في بيتـــه وكـــان يتـــآمر معـــه، وقـــد تـــم إحراقـــه هنـــا في هـــذا الميـــدان قبـــل ثمانـــين عامـــا، لا تنخدع بها سيدي ..

"هذه المعلومة كنت أعرفها حقا وقد شعرت بالخوف من تهديده المبطن"

-ولماذا أمر صاحب الجلالة بإغلاق حمامها؟

-سنيور كولاني، ألم أقل لك إنّك جديد على بلادنا، هؤلاء الموريسك لا يستخدمون هذه الحمامات للاغتسال، ما حاجتهم لذلك كل يوم أو يومين، يستطيع السيد القشتالي البقاء شهراً أو أكثر دون استحمام، فهل هؤلاء الموريسك الصعاليك أفضل من نبلائنا وقساوستنا؟ هل هم أفضل من المقدسة إيزابيلا التي أعادت غرناطة إلى أحضان الكنيسة المقدسة، إيزابيلا المقدسة هي التي افتخرت بأنّها لم تستحم سوى مرتين، الأولى حين ولدت والثانية عند زواجها، هل هم أو نساؤهم العاهرات أفضل منها؟ قل سنيور؟

لا سيدي إنّهم يستغلونها لغسل وجوههم وأيديهم قبل أن يصلوا، هذه أوامر نبيهم وهم لا يخالفونها مع أنهم في بلاد المؤمنين الكاثوليك، أؤكد لك أنّهم يغتسلون للصلاة وهذا كفر، لذلك امر جلالته باغلاق بيوت الشيطان هذه، الحمامات.

ليس هذا فقط سيدي، لقد أمر صاحب الجلالة بمنعهم من ارتداء أزياء الكفرة الخاصة بهم، ولا يسمح لهم بعد الآن أن يتحدثوا بلغة دينهم المحمدي، كما منعت نساؤهم من التزين بالأصباغ، إنهن يغرين المؤمنين الكاثوليك في الطرقات والأسواق وحتى عند حضورهن الكاذب

للصــلاة في الكنيســة، حتــى الكنيســة لا تحترمهــا نســاؤهم، فكيــف يســكت عنهم صاحب الجلالة.

***

صــديقي، حكايــة قمــرين التــي ولــدت في خيمــة إشــبيلية، شــدت المخــيم كســابقتها حكايــة مايوركــا التــي ولــدت في ذات الخيمــة، نســيت أنْ أقــول لــك إنَّ الــدكتور أحمــد رودمــيرو ورد اســمه ضــمن أعضــاء هــذي الخيمــة وكــذلك اســمي أنــا، عــمار إشــبيليو، لكنــي وقــد قضــيت حيــاتي حالمــا، لا أســتطيع التمييــز بوضــوح بــين مــا أعيشــه وأمــر بــه فعــلا في الواقــع، وبــين مــا أحلــم بــه، دائــما تــراني حالمــا، يقظــا ونــائما أحلــم، حتــى وأنــا في أشــد انشــغالاتي لا أنفــك أحلــم، آميكــو، لا أحلــم يعنــي لا أتــنفس، صــدق أو لا تصــدّق، أحيانــا أحلــم أنّي أنــت، أو بــالعكس، هكــذا هــو صــديقك عــمار، لا أطيــل عليك وسنلتقي، أعدك، بإذن الله.

كانــت رســائل عــمار إشــبيليو تــرد إلى بريــدي ولا أردّ عليهــا إلا بإيجــاز، لــيس عنــدي مــا أقولــه ســوى حثــه عــلى إكــمال حكايــات المخــيم، مخــيم المواركــة المقــام جنــوب الأنــدلس بــين غرناطــة وإشــبيلية، تصــفحت الإنترنيــت والمواقع التي أرتادها بحثا عن خبر عن

المخــيم أو أيّ إعــلان عنــه أو معلومــة فلــم أجــد أيَّ ذكــر، ربــما أخفَــوا أخبــاره لكي لا يعكّر صفوهم أحدٍ، كتموا أخبار المخيم، لكن، لماذا التكتّم؟

أجاب عمار:

-الغياب والتواري عن أنظار التاريخ حال لازم الموراكة وما حل بهم، تاريخهم مسكوت عنه، يبدو لي أنَّ هذا هو المبرر الفني لإخفاء أخبار المخيم وتغييب فعالياته، وربما كان في هذا التكتم احتجاجٌ منهم على إهمال الآخرين لما حل بهم من مآسٍ.. لنقل إنَّ فكرة المخيم هي اختلاق أندلس مصغرة، أندلس الموريسكيين في القرن السادس عشر وما تلاه، إعادة تمثيلها على خشبة مسرح، يمثلها هذا المخيم..

اقرأ معي أرجوك هذه القصاصة مرة أخرى:

" المارانوش الذين اعتذر خوان كارلوس منهم،

كانوا يهودا

والموراكة الذين نسيتهم حتى مدارسنا،

كانوا موراكة.. "

الكاتب الموريسكي يشير هنا إلى اعتذار الملك خوان كارلوس بنفسه مما جرى لليهود في قشتالة، لكن، كما قلت لك، إن كتم حالنا وغيابنا هو الواقع وهكذا فعلنا بأخبار المخيم، أليس مخيماً للموراكة هو؟!

لا أريـد أنْ أؤذيـك أكثـر، لكـن لتطّلـع لا غـير، فقـط لتطلـع، اقـرأ معـي وأعـد قراءاتــك كلهــا، لســت أنــت فقــط، كلنــا يحتــاج لإعــادة قراءاتــه للتــاريخ وحقائقه، كلنا..

لماذا؟!

ما فعله الكاردينال زمينز

وبشاعات خوان أوستريا،

تجاهلها ليون الأفريقي أو حسن الوزان،

لماذا؟! تساءل موريسكي بمرارة،

وأمامه في التلفاز قدمت جائزة أستورياس للأدب 2010.

حقــا تســاءلت معــه، ولكــن حكايــة قمــرين تــتراءى أمــامي وعــمار تــأخر في الكتابــة، إيميلــه لا يســتلم، وغــير هــذا لا اتصــال بيننــا، أحيانــا أشــكّ في نفسي ـ وأكــاد أصــدّق بــأنّي أنــا مــن يختلــق كــل هــذي الأحــداث والحكايــات ويكتبها..

بعــد أيّــام أفضــيت بشــكوكي ومــا أنــا فيــه مــن تشــوش إلى عــمار أشــبيليو، والغريب أنّه ردّ ببرود:

-إنَّ هذا ما يحصل لي تماما.

لكنـــي لم أتوسّـــع معـــه في الموضـــوع، كـــي أتـــيح لـــه التفـــرغ ليحكـــي لي عـــن قمرين أو كامارينا كما يسمّيها كولاني تاجر الحرير المتنكر، وكتب..

خيمـــة غرناطـــة، وهـــي الأولى في الترقـــيم طبعـــا، عزفـــت عـــلى وتـــر الحكايـــة، حكايـــة قمـــرين أو حكايـــة إغـــلاق الحمامـــات، كأنهـــا لم تتقبـــل انفـــراد خيمـــة إشـــبيلية بهـــا، فنشرـــت عـــلى رواد المخـــيم مـــا أبدعتـــه ريشـــات أصـــحابها مـــن حكاية تجمع بين الألم الإنساني والمحبة، حكاية سوق القيصرية..

لم يكـــن اســـمه كـــولاني، تـــاجر الحريـــر في حكايـــة قمـــرين، كـــما أنّـــه كـــان بروتســـتانتيا هولنـــديا مـــن دنهـــل، ولم يكـــن إيطاليـــاً ولا كاثوليكيـــا، لكـــن براعتــه في التجــارة مكنتــه مــن جمــع ثــروة طائلــة جعلتــه قريبــا مــن أورانــج أمــير الهولنـــديين البرتســـتانت المتمـــردين عـــلى الاحـــتلال الإســـباني لـــبلادهم، كلفـــه أورانـــج بعـــدة مهـــام ليقـــوم بهـــا خـــلال رحلاتـــه، كـــان يـــتقن اللاتينيـــة ولغـــة الإنكليـــز ممـــا ســـاعده عـــلى النجـــاح، خاصـــة في المـــدن الإيطاليـــة، فينيســـا وجنـــوى وفلورنســـا، وادعـــى هنـــاك أنّـــه كـــاثوليكي، واخـــتلط بالإضـــافة إلى الأوربيـــين بتجـــار عـــرب وأتـــراك، اشـــترى مـــنهم التوابـــل والتمـــور، وبـــاعهم الحريـــر الهولنـــدي، الأقـــلّ جـــودة مـــن حريـــر غرناطـــة النـــادر.. لكـــن في المـــوانئ الإيطاليـــة، كـــان الســـؤال دائـــما عـــن حريـــر غرناطـــة الـــذي يبـــاع بـــأثمان عاليـــة لندرته وجودته.

حفـــزه الطلـــب عـــلى حريـــر الأنـــدلس، خاصـــة مـــا ينســـج في غرناطـــة، عـــلى الســـفر بحـــرا إلى قشـــتالة التـــي تعلـــم لغتهـــا بصـــعوبة بعـــد أنْ قصـــد غرناطـــة وسوقها الشهير، سوق القيصرية، وطالت إقامته أشهراً..

""" زوجـــة الكاتـــب الهولنـــدي المشـــارك في المخـــيم - اســـمها فيرونيكـــا كـــما أتـــذكر- وكانـــت مهتمـــة بالتـــاريخ، وضـــعت خطـــا تحـــت عبـــارة "حريـــر الأنـــدلس" وكتبـــت بمحاذاتهـــا هامشـــاً اســـتغرق جـــانبي الصـــفحة كلهـــا. """

"وفقا للمخطوطات الملكية في لاهاي لم يكن سفر باستن، مصادفة، لأجل تجارة الحرير كما ورد، كان سفر باستن إلى غرناطة مقصودا وبتوجيه من أمير أورانج للتجسّس وإثارة المشاكل داخل إسبانيا وللبحث عن مصير بعض الإسبان الذين اعتنق آباؤهم البروتستانتية خلال وجودهم في هولندا ضمن قوات الاحتلال الإسباني، وكانوا أصدقاء للشعب الهولندي، عملوا ما بوسعهم لمساعدة البروتستانت ورفضوا ظلم محاكم التفتيش واضطهادها لهم، وثمة عدة حوادث موثقة من هذا التواطؤ مع الهولنديين، في إحداها اكتشف القشتاليون تعاون برادو، حامل البريد - بين الكنيسة الكاثوليكية وبين محكمة التفتيش - مع المطلوبين للمحاكم، إذْ كان العديد من المتهمين بالهرطقة (اعتناق البروتستانتية (يفرون قبل ساعات من اقتحام بيوتهم من قبل الجنود القشتاليين، تكررت حالات الفرار الغريبة تلك، فأثارت شكوك المحققين في محكمة التفتيش الكاثوليكية في دنهل، واستطاعوا بعد عدة كمائن ذكية أنْ يعرفوا الفاعل، كان أجداد برادو من سكان إيبريا القدامى الذين كانوا يدينون بالإريوسية، ثم كثلكتهم الكنيسة القشتالية، ويقال إنَّ بعض أقاربه في الأندلس الصغرى، أندلوثيا، كانوا قد اعتنقوا الإسلام قبل انهيار إمارة غرناطة الأندلسية، ومنهم من طرد مع الموريسكوس المتنصرين بعد عام 1609. "

لم توافــق خيمــة غرناطــة عــلى إضــافة الهــامش للحكايــة، وأكّــد المعترضــون أنَّ حريــر غرناطــة هــو الــذي أتــى بالهولنــدي بيــتر باســتن ولــيس أمــراً أخــر، وإنّ مــا تــذكره الحكايــة عــن ســؤاله عــن البروتســتانت الــذين أحــرقتهم محــاكم التفتــيش في قشــتالة كــان وليــد اللحظــة وهــو أمــر طبيعــي أنْ يتعــاطف الإنسان مع أبناء دينه أو قومه.

لكنّنــا للأمانــة العلميــة ثبتنــا الإضــافة كهــامش، وأيــدنا في هــذا طيــف واســع في المخــيم وكــذلك بعــض أفــراد خيمــة غرناطــة والــذين حــين رفــض زملاؤهــم مــن نفــس الخيمــة إضــافة الهــامش طــالبوا بعــرض الموضــوع عــلى التصــويت الــذي اشــتركت فيــه خيمــة البشرــات أيضــا ولم تكــن نتيجــة التصويت لصالحهم.

لا أطيــل عليــك صــديقي، ولكنهــا تفاصــيل ضروريــة لتعــرف كيــف كنــا نمارس احتفالاتنا القصصية في المخيم.

لنعــد الآن إلى إكــمال حكايــة ســوق القيصرــية، وفقــا لمــا كتبتــه الخيمــة الحمراء، خيمة غرناطة..

تتمّة سوق القيصرية

كان الهولندي بيتر باستن، وهذا اسمه الحقيقي، يتفحص القماش حين حاذاه أحدهم وهمس بأنَّ لديه حريرا جيدا ورخيصا.. ثم تنحيا جانبا وخاضا في حديث خافت وطويل، حفظت أوراق باستن بعضاً منه..

-كيف وثقت بي؟

-عرفتك أجنبياً، كما أنّك لست طليانيا كما تقول، ملابسك وكلامك لا يدلّ على ذلك، أليس صحيحا؟

-صحيح لكن ألا تخاف مني؟ أنا مسيحي أيضاً وقد أخبرهم عنك.

-أغلب سكان الأندلس من النصارى يحبوننا ونحبهم، عشنا معا أجيالاً عديدة، الكثير منهم تعرضوا للظلم مثلنا، حتى إنَّ الكنيسة أحرقت عددا منهم، فقط هؤلاء الشماليون الغلاظ يؤذوننا، كما أنَّ وجهك مريح، تشع منه الرحمة، كأنك مسلمٌ، لاحظتك في السوق تتعاطف مع المواركة، واضح أنّك تعرف مأساتنا، لا أدري لماذا يقتلنا القشتاليون ويفعلون بنا وبأولادنا ونسائنا ما لا يمكن التحدث به؟ لا أدري لماذا؟ فنحن طوال حياتنا لم نؤذ الآخرين، عشنا معا كالإخوان، لا أدري يا سيد، لا أدري لماذا.

-ولِمَ تريد بيعي حريرك سرا؟

-لا أريدهم أنْ يعرفوا، لدي الكثير لأبيعه لك بأثمانٍ ستربح منها، لدي أربع لفات كبيرة من أفخر الحرير الأندلسي، أخفيها، ولدي مصوغات ذهبية شغل مراكش والقاهرة وبعضها صياغة إسطنبول، هل تريد شراءها؟ أرجوك، خذها بأيّ ثمن، أنا بحاجة لبيعها الآن؟ أرجوك تفضل معي إلى الدار.

يقول باستن في أوراق وجدت في خزانة كتبه التي أعيدت إلى أهله بعد وفاته في الهند أو الخليج:

كان الباب وشبابيك داره مشرعة حين وصلنا، وما إن رآنا صبي صغير له حتى هرع إلى الداخل، كأنما يحذرهم مني..

-يظنك قشتالي، هذه حياتنا كلها رعب، حتى أطفالنا مرعوبون دائما.

-ما اسمه؟

-محمد وسمته الكنيسة ميشيل، وإذا وصلنا البر المغربي سالمين إنْ شاء الله، أوّل عمل أقوم به، هو ختانه، وأشار بأصابعه إشارة القص بالمقص.

ضحكا معا.. " ربما كان أبو محمد نفسه بغير ختان أيضا ولكنه لم يذكر هذا للهولندي. "

-ولمــاذا تقصــه، المســكين ســيتألم، أنــا أيضــاً مثلــه، هــل ستقصــونني إذا جئــت لبلاد المسلمين؟

-معــاذ الله أخـــي عيســـى بدينـــه وموســـى بدينـــه، أولاً هـــذا للتطهـــر، ثانيـــا المســـلمون لا يفعلـــون هـــذا بغـــيرهم، لا يجـــبرون أحـــداً، لم أســـمع بهـــذا مـــن أبي وعمي، كانا يعلمانني الإسلام سرّاً.

-تتحدث وكأنك مسلم، ألست كاثوليكيا؟ "قالها باستن بمزاح".

ضـــحك أبـــو محمـــد، ثـــم هـــزّ رأســـه علامـــة النفـــي وهـــو يربـــت عـــلى كتـــف باستن.

-قـل لي البــاب والشــبابيك مفتوحــة هكــذا، لمــاذا؟ ألا تخشــى مــن عــدوانهم وقد يدخلون على عائلتك، لو كنت مكانك لأحكمت إغلاقها.

-يُمنــع علينــا إغــلاق أبوابنــا أو شــبابيكنا يــا ســيد، يريــدون التأكــد مــن أنّنــا نصـــارى فعـــلاً، وأننـــا لا نصـــلي مثـــل المســـلمين أو نتلـــو القـــرآن، هكـــذا يقولـــون، ولكـــن الصـــحيح أنّهـــم يفعلـــون ذلـــك لأغـــراض أخـــرى، لإذلالنـــا وسرقـــة أموالنـــا، لا أســـتطيع التحمـــل أكثـــر، ســـأرحل سرّاً إلى العـــدوة المغربية.

-اســـمع مـــا زال القشـــتاليون يتحكمـــون بنـــا أيضـــا، كـــما قلـــت لـــك، أنـــا هولنـــدي يـــا صـــديقي ولســـت كاثوليكيـــا، بلادنـــا تقـــع عـــلى البحـــر، بعيـــدا في الشـــمال البعيـــد، ولـــو عـــرف هـــؤلاء الأوبـــاش بحقيقتـــي لأحرقـــونني كـــما

يفعلــون بكــم، وعنــدنا أحرقــوا الآلاف مــن الأبريــاء لا لســبب، ســوى أنّهــم ليســوا كاثوليكــا، سأشــتري منــك مــا تريــد وســأدفع لــك مضــاعفاً، قلــت لي قبل قليل أنّهم أحرقوا بعض المسيحيين، هل تعرفهم؟

-المســاكين الــذين أحرقــوهم أعــرف بعضــهم، هــم لا يتبعــون البابــا الكبــير في روما، هل هم من تبحث عن أخبارهم؟

-هــم، نعــم، هــم، مــا تعــرف عــنهم؟ أيــن عــوائلهم؟ هــل أقــدر عــلى مساعدتهم؟

-ريكــاردو المســكين، أعرفــه، كــان صــديقي، وطالمــا ســاعدني في محــن عديــدة، كنــت كلــما أشــعر بــالخطر أختفــي في داره، زوجتــه الطيبــة لارنكــا وابنتــاه الرائعتــان تانيــا وأنخــيلا، عشــنا معــا مــن زمــان بعيــد، لســنا نحــن، أجــداد أجــدادنا عاشــوا معــا، جارنــا ســالم رحمــه الله، عــذبوه حتــى مــات، كــان متزوجــاً أختــه، عــذبوه لأنّــه موريســكي ولأنّــه صــهر ريكــاردو، قبــل عــامين شــتمني جنديقشــتالي مــن دون ســبب، كــان مخمــورا حــين شــتمني ولم أحمّــل، كــان مســلحا، لكنــي هاجمتــه بكــل قــوتي ومــع أنّــه في شــبابه إلا أنّ الله نصرــني عليــه، فطرحتــه أرضــاً وأدميــت وجهــه بلكــماتي قبــل أن أتــوارى، خشــيت أنْ يكــون قــد عرفنــي فقصــدت ريكــاردو وأخبرتــه بــما حصــل، ظــل قلقــا عــليَّ واستضــافني في بيتــه أســبوعا كــاملا، عشــت معهــم كــأني أحــدهم، وفي اليــوم الثــامن قتلــوا ثلاثــة موريســكيين تعــرف الجنــدي علــيهم، كــان كاذبــا طبعــا وجبانــا، وكــانوا أبريــاء، أنــا لوحــدي تغلبــت عليــه وعــلى ســلاحه وأشــبعته

ضربا، لكنهم هكذا، وبعد عام أو أقلّ قبضوا على ريكاردو وسالم مع عدد من المسيحيين يسمونهم الهراطقة، اتهموهم بالكفر، وأحرقوهم، سكت الموريسكي للحظات وكان اسمه القشتالي ماركوس، ثم قال وكأنه ينظر لمكان بعيد..

أتذكّرها، كانت لارنكا محلولة الشعر وتركض، كأنها مجنونة تركض، وابنتاها خلفها، كن يركضن، لم أكن أعرف بالقبض على ريكاردو زوجها، فصحت وراءها وأردت الجري لكن جاري الموريسكي الكوازيل وكان موظفا عندهم في القصر، شدني بقوة وأغلق فمي.. مجنون، ما تفعل؟ زعق بي، وقال: هل تريد أن تهلكنا؟ سيحرقونك معهم، اسكت ولا تفعل شيئا، ولا تذهب لبيت ريكاردو ولا سالم أبداً.

كان الكوازيل يعرف ما يجري في محكمة التفتيش.. وكان حفل الإحراق قد حدّد موعده بعد أيّام لا أكثر.

-أين زوجته وبناته الآن؟

-أين هنّ، هه، جواري يا سيد جواري، يشتغلن كالخدم في بيوتهم، ويفعلون بهن ما يريدون، وبكى الأندلسي ماركوس..

ما جرى بعدها لبيتر باستن والأندلسي_ لا نعرفه يقال إنّهما اتخذوا طريقا إلى الجنوب من غرناطة، بين ملقا والمرية، وتنقلوا كتاجرين كاثوليكيين من مواطني فلورنسا ومعهما عائلتيهما، أجادوا التنكر وارتدوا الزي

الفلورنسيـ لـئلا يشـكوا بهـم، كانـت لارنكـا وابنتاهـا مـع باسـتن والغرنـاطي وعيالـه، لكـنهم كـانوا إذا لمحـوا دوريـة مـن الجنـود أو فـرق الكنيسـة، يخبئـون النسـاء والأطفـال في الأحـراج أو خلـف الصـخور، حـدث هـذا مـرارا حتـى بلغـوا الشـاطئ ومعهـم البضـائع وهـي التـي أبعـدت عـنهم الشـكوك طـوال الطريق، ومن هناك اكتروا مركبا إلى مليلة على الساحل المغربي..

طويلـة هـذه الحكايـة يـا صـديقي، لسـت أنـا مـن قـال ذلـك، عـدد مـن المشـاركين في المخـيم انتقـد طريقـة السرـد فيهـا وقـالوا إنّهـا مملّـة بعـض الشيـء وتفتقـر إلى الجاذبيـة، بيـنما مـدح غـيرهم مـا حـواه مضـمونها مـن أخـوّة ومحبـة إنسـانية بـين أبنـاء الأنـدلس مسـلمين ونصـارى، الـدكتور رودمـيرو أكّـد عـلى أهميتهـا كوثيقـة وقـام بتوزيعهـا بنفسـه، ممّـا أشـعر الغرنـاطيين بالارتيـاح، وعـلى كـل حـال فـإنَّ بلـوغ الـبَرّ المغـربي نهايـة طيبـة، لكـن دور باسـتن لم ينتـه بعـد وسـأقص عليـك في رسـالة قادمـة مـا أبدعتـه إضـافة الكاتب الهولندي وزجته فيرونيكا.

لم يخـبرني بـما كتبـه الهولنـديان، يبـدو أنَّـه نسيـ، أو أجّـل الموضـوع، فقـد أرسـل لي حكاية ثانية تمثل تتمة إشبيلية لحكايتها عن كاسياس وعنوانها:

ملاحظتان لخيمة إشبيلية قبل أوردتها قبل الحكاية..

"ملاحظـة أولى: كنـاري هـي الابنـة البكـر لقمـرين، تـاريخ ولادتهـا مسـجل في كاتدرائيـة إشـبيلية بتـاريخ 1547-6-24، ولقمـرين ولـدان غيرهـا، همـا، حامـد أو خـوان رودريغـو كـما مثبـت في الكنيسـة، وهـوليس المـلاح

الموريسكي المعروف بنفس الاسم، لكنه حفيده، ولد حامد الذي اشتهر في الأدب باسم حامد بن قمرين، ولد عام 1552، بينما ولد أخيه الأصغر عمار أو أمّاريو بعده بخمس سنوات أيضاً.

ملاحظة ثانية: ذكرنا هذه التفاصيل الموثقة لكي لا يزعم آخرون انتساب قمرين إليهم كما حصل مع كاساس، هذا السبب الأول، والثاني، كي يميز القارئ بين كناري بنت قمرين التي ستداخل اسمها مع كناري أخرى، لكن من نوع مختلف".

كنـــاري

كـــان كاســـياس مســـلحا بســـيف قصـــير، مختبئــا في الأدغـــال الكثيفـــة المحيطـــة بإشـــبيلية حيـــنما لمـــح مـــن بعيـــد ثلاثـــة فرســـان قـــادمين عـــلى الطريـــق المحـــاذي لمكانـــه حيـــث كـــان يترصـــد، أدرك أنهـــم قشـــتاليون قبـــل أن يقتربـــوا، ودعـــا الله أن يمكنـــه مـــنهم، تـــلا فقـــرات مـــن دعـــاء الثغـــور، صـــدره يغـــلي غيظـــا، ثـــم بانـــت شخصياتهم، كانوا فارسين وراهبا، ذاهبين ربما إلى قرطبة أو ملقا..

" لســـنا متأكـــدين مـــن وجهـــتهم، فـــإذا كـــان مكمـــن كاســـياس شـــمال إشـــبيلية، فـــإنّ وجهـــتهم قرطبـــة، أمّـــا إذا كـــان كاســـياس إلى الجنـــوب مـــن إشـــبيلية فهـــم يتجهون إلى ملقا أو قادس".

قريبـــا مـــن مكمـــن كـــريم، ترجـــل أحـــد الفارســـين لقضـــاء حاجتـــه، ومضى الآخـــران عـــلى مهـــل، لم يُضـــع كـــريم الوقـــت فـــانقض عـــلى القشـــتالي وهـــو عـــار وأجهـــز عليـــه بصـــمت، أخـــذ بارودتـــه القصـــيرة وســـيفه، فـــرح بالبـــارودة وأسرع بتفحصـــها ليعـــرف كيـــف يســـتخدمها، كانـــت محشـــوة ويبـــدو أنّـــه أخطـــأ فانطلقـــت الرصاصـــة واســـتدار الآخـــران بارتبـــاك، عـــادا بحـــذر، لا يعرفـــان مـــا جـــرى، وصـــاحا باســـم صـــاحبهما مـــرارا، هـــذا التـــأخّر وفّـــر لكـــريم كاســـياس وقتـــا لإعـــادة حشـــو البـــارودة وتصـــويبها عـــلى الجنـــدي الآخـــر فقتلـــه، أمـــا الراهـــب فقـــد ســـقط مـــن فرســـه مرعوبـــا، اســـترجع كاســـياس وهـــو ينظـــر إلى وجـــه الراهـــب مـــا شـــاهده مـــن احتفـــالات إحـــراق الأحيـــاء مـــن الموريســـكيين، تـــذكر أنّـــه رآه في أكثـــر مـــن حفـــل إحـــراق أو تعـــذيب في الميـــدان

العام بإشبيلية، تذكر ملامح الابتهاج والوحشية على وجهه، وتذكر المايوركا وحمام قمرين، وكان سيفه القصير - وهو يتذكر - ينغرس أكثر فأكثر في صدر الراهب، وقف للحظات، ثم انحنى على جثث الثلاثة وخط على كل جثة بدمها، حروف كلمة مايوركا بالخميادو، تمنى لو أنّه يعرف الكتابة بالقشتالية.. ثم غير مكانه إلى جهة أخرى، مشى عشر ساعات دون توقف، قطع بعض المسافات بالفرس وبعضها مشيا، ومحا آثاره لمسافة، ولم يعثروا عليه، مع أنهم كانوا خيالة وبالعشرات.

أحد المارانوش اليهود فك لهم رموز الخميادو، وعرفوا أنّ القاتل هو كاسياس، وانتشر الخبر في إشبيلية، وشعر المسافرون بالخطر، أمّا الموارِكة، فقد كانت أخبار كريم تخفف عنهم وتفرحهم، ربما كانت قمرين أكثرهم فرحا وافتخارا بما يفعل..

مما كتبه حامد بن قمرين بيده، أنّه فوجئ وهو على السطح برجل يناديه بهمس، التفت، وجدته كاسياس، أعطاني دوقات ذهبية، قال أعطها لأمّك، أوصاني بالكتمان وحذرني من أنّهم سيحرقوننا إذا عرفوا بأيّ شيء، ثم أخذ معه حمامتين وقال: أخبر السيدة قمرين أنّي إذا احتجت إليها سأرسل لها رسالة بقدم الحمامة، وقال لي: حامد تفقد برج الطيور كل يوم فإذا وجدت ورقة مربوطة بقدم إحدى الحمامات خذها لأمّك بسرعة ولا تعطها لغيرها أبداً، ثم ودعني، وكان الوقت ليلا.

بعد أيّام ستعرف قمرين أنّ مؤونتهم نفذت، وستجازف بجرأة يفتقر إليها الكثير من الرجال وستوصل الخبز والتين المجفف وأنواعاً أخرى من الطعام إليه بنفسها، لم تخبر أحداً، حتى حامداً، الذي عرف بذلك بعد حين، وحرصت على أنْ تكون تحت يد كريم دائما حمامة أو حمامتان كي لا تنقطع أخباره، وفي إشبيلية انتشرت الشائعات عما يفعله كريم كاسياس بضحاياه، وحيكت الأساطير والقصص الخيالية حوله حتى إنّ القشتاليات كن يخوفن صغارهن بكاسياس ذباح القشتاليين، وفي كنائس إشبيلية كان جميع المصلين، رجالاً ونساء يختتمون صلواتهم بالدعاء إلى القديس ياغو ذباح الأندلسيين ليخلصهم من كاسياس، وبعثت الكنيسة بعدة مجموعات ليحجوا مشياً إلى سانتاياغو في كومبوستيلا البعيدة ويتضرعوا لديه بالخلاص من كاسياس، وكل هذا كان ينزل كالماء بارد على قلب قمرين. ابنتها كناري كانت تفرح أيضاً وحامد وأغلب الموارِكة، عدا بعض الخائفين من انتقام الكنيسة ورجالها المرعبين، ولم تُطلع قمرين ابنها عمار على أيّ شيء لصغر سنّه.

أنا متعب أخي وعلي أنْ ألتقي بالدكتور أحمد لترتيب وضع المخيم، بالتأكيد سنتواصل، بإذن الله، لكنني متعب الآن، دعاءك.

ما علاقة كناري بمضمون الحكاية؟ لم أفهم، ولماذا أوردوا الملاحظتين عنها في المقدمة؟ كنت أتساءل وأنتظر، بعد أيّام ظهرت رسالة من عمار فقرأتها متلهفا، أكثر من حكاية انتظر نهايتها بشوق، كأنما كان ذلك

التـــأخير مقصـــودا منـــه، لكنـــه أكـــد لي فـــيما بعـــد، أنّ ســـير الاحتفـــالات القصصـــية في المخـــيم كانـــت عـــلى هـــذا النحـــو العشـــوائي الغريـــب والمثـــير للمتعة والانشداد..

كانت رسالته تتمة لحكاية كناري الجميلة وأسموها:

كناريات

انتشرـــت عـــادة تربيـــة الحـــمام عنـــد الموار كـــة، خـــلال وقـــت قصـــير وبشـــكل غريـــب لم يفطـــن القشـــتاليون لـــه، كـــان الموار كـــة يســـمونها كناريـــات، وكـــان بعـــض الحـــمام، ربـــما لكثرتـــه، يحـــط أحيانـــا عـــلى ســـطوح الآخـــرين، ظـــاهرة جميلـــة ارتـــاح لهـــا ســـكان إشـــبيلية، حتـــى الشـــماليون مـــنهم، وأكثـــر الأبنيـــة جـــذبا للكناريـــات كانـــت كاتدرائيـــة إشـــبيلية وغيرهـــا مـــن الأبنيـــة العاليـــة، ومنهـــا قصرـــ الطـــين الـــذي بنـــاه أحـــد الأندلســـيين قبـــل 300 عـــامٍ، بنـــاه في نفـــس المكـــان الـــذي لعبـــت فيـــه بـــالطين اعـــتماد الرميكيـــة زوجـــة المعتمـــد بـــن عبـــاد، أمـــير إشـــبيلية وكـــان الطـــين الـــذي أمـــر المعتمـــد بإعـــداده لهـــا لتلعـــب بـــه مـــع وصيفاتها، معجونا ومضمخا بأغلى وأندر أنواع العطور..

في هـــذا القصرـــ يقـــيم الآن الـــدون الفونســـو خيمينـــز، الرجـــل الأقـــوى والأغنـــى في إشـــبيلية وصـــديق الـــدون خـــوان أوســـتريا أخ صـــاحب الجلالـــة الملـــك فيليـــب الثـــاني ملـــك قشـــتالة المعظـــم، يقـــع القصرـــ في قلـــب إشـــبيلية تقريبـــا، أغلـــب بنائـــه قـــديم، وبعيـــد عنـــه في طـــرف إشـــبيلية بنـــى أحـــد أغنيـــاء الموار كـــة دارا شـــبيهة بـــه، وأســـماها، دار الطـــين، لم تكـــن تختلـــف عـــن قصرـــ

الطين إلا بحجمها، فقد كانت أصغر بكثير، كما أنّ مظهرها من الخارج لم يكن جذابا، وقد تعمد صاحبها تشويه جدرانها الخارجية لئلا يطمع بها الإسبان، من الداخل كانت آية في الفن والروعة وجمال البناء، تغطي جدرانها الفسيفساء الأندلسية ونقوش المغاربة، وكان توزيع الألوان في الداخل مدهشا وساحرا للنظر، وأكثر المواركة يعرفون هذا ويكتمونه خشية على أخيهم بن سالم صاحبها، الذي لم يكن يفوت فرصة لمساعدة إخوانه وكانت له بعض العلاقات مع رجال الدولة والكنيسة حتى إنّهم يرونه كاثوليكيا صالحا وإن كان موريسكيا، لكثرة تبرعه للكنيسة ورجالها، وعلى سطح الدار أنشأ لويس ابنه قنا واسعا للكناريات، وكان عددها كثيرا وأشكالها مختلفة وبريش مختلف الألوان، وتعد من أجود حمام إشبيلية إذ كان بعضها يقوم أثناء طيرانه بحركات تقلب جميلة تثير الدهشة وتنم عن أصالة الحمامات وذكائها، فذاعت شهرة كناريات لويس بين الأندلسيين المواركة، أمّا القشتاليون فليس لهم اهتمام بتربية الحمام ولا معرفة بفنونه، لكن طيرانه في سماء إشبيلية وألعابه كانت تشد بعض المترفين منهم، وأحياناً حتى الرجل القوي الفونسو، كان يتلهى بمشاهدة أسرابها في الأوقات النادرة التي يصعد فيها إلى سطح قصره، قصر الطين، للترويح عن نفسه، حدث هذا مرات عدة، وكان يعجب لتقلبات الطيور وألعابها المدهشة في السماء فساورته الشكوك بأنّها من السحر الذي يتقنه الموريسكوس والهراطقة، وكي يتقي سحرهم كما أخبره صديق له أمر الخدم بنثر الحب على سطح قصره لإطعامها..

في صباح يوم أحد قبل توجه دون الفونسو إلى الكنيسة - كما تذكر مخطوطة محفوظة في مكتبة الإسكوريال بمدريد - وكان في ساحة القصر مع ضيوف له، ذرقت حمامة على صلعته، ومن بين الضيوف سيدتان من قريبات الدون خوان أوستريا وبعض النبلاء، فتضاحكت إحدى السيدتين، تبعتها الأخرى بالضحك وسرت العدوى للجميع، حتى الفونسو، اضطر لمشاركتهم الضحك وهو يمسح رأسه لا إراديا، وشاع الخبر في الطبقة الأرستقراطية وصار حديث الحفلات في إشبيلية على مدى الأسبوع، لكن في الأحد التالي عند إقامة القداس في الكنيسة أدهش القس الجميع بذكر الحادثة واتهم الموريسكوس بالتعمد في إهانة الدون الفونسو وطالب بمعاقبة كل من يربي طيور الشيطان في بيته .. حرمة الكنيسة والقداس وحماسة القس وهو يلقي عظته عن طيور الشيطان لم تمنع بعض المصلين من خفض رؤوسهم والضحك وعلت همهمة خافتة كبحها صوت القس الغاضب وهو يؤنب المؤمنين لاستخفافهم بخطورة الحدث..

جلدوا العديد من الموارِكة، وشويت الحمامات التي أمسكوها أو أطلقوا النار عليها، لكن التهمة وجهت تحديدا إلى بن سالم، ربما لكثرة الحمام عنده، ولأنّ الحمامة التي ذرقت على رأس الفونسو كانت من ضمن سرب عائد له، كما ادعى رجال الفونسو، وسيق بن سالم مقيدا إلى الكاردينال زمينز الذي وإن كان يستمتع ويضحك بكل قوته كلما

أعيـدت الحكايـة عـلى مسـامعه، إلا أنّـه انـزعج لأنَّ الفونسـو كـان مقربـا مـن الدون خوان أوستريا، ولأنّ الفعل نسب إلى موريسكي..

بقـي بـن سـالم عـدة أشـهر، لا يعلـم مصـيره أحـد، وقـد صـادر الفونسـو كـل أملاكـه، ومنهـا داره، وزاد مـن غضـب الفونسـو أنّـه حـين اقـتحم دار بـن سـالم لاعتقالـه فـوجئ بتشـابه تصـميمها وشـكلها مـن الـداخل مـع تصـاميم قصره فاستشـاط وضرب بـن سـالم أمـام عيالـه، ثـم أمـر بتخريبهـا وجعلهـا إسـطبلا لخيولـه، كـما أخـذ جاريتـه هيلينيـا لتعمـل خادمـة في بيتـه، وكـان بـن سـالم قـد تزوجهـا قبـل عـام لمـرض زوجتـه أم لـويس، وفـوق هـذا طـرد الفونسـو كـل عائلـة بـن سـالم، لكنـه عـاد بعـد أيّـام وسـمح لهـم بالسـكن في حجـرة تقـع عنـد نهايـة بسـتان تفـاح ملحـق بالـدار، كـان الفلاحـون يتخـذونها للاسـتراحة أوقـات العمـل، لـذا فهـي واسـعة، بنيـت حيطانهـا مـن الطين وسقفت بالقش والقصب..

لكـن الغريـب أنَّ بـن سـالم عـاد إلى إشـبيلية بوقـار، أو كـما كـان أطفـال المواركـة يـرددون (عـاد سـالما بـن سـالم – عـاد سـالما بـن سـالم) كـأن عـودة أي شـخص سـالما بعـد اعتقالـه مـن قبـل محـاكم التفتـيش يعتـبر معجـزة وهكـذا سرى هذا المثل بين المواركة

"عـاد سـالما بـن سـالم" للدلالـة عـلى أنَّ مـن يكتـب الله لـه الحيـاة فسـيحيا رغم أنف النغل أوستريا وزمينز كما يقولون.

ويقال إنَّ وساطات قشتاليين وأراغونيين من إشبيلية اشتغلت لدى الكاردينال لصالح بن سالم فأفرج عنه من اليوم الأوّل، لكنه أبقاه عنده عدة أشهر مراعاة لألفونسو.

عودة بن سالم جعلت العديد من الموريسك يظنون أنّه كان مقشتلا، أي من الموالين لقشتالة، غير أنَّ استمرار مصادرة الفونسو لداره وبساتينه، وتوضيحات ابنه لويس إذ شرح لهم حقيقة ما جرى من وساطات، بدد الشكوك عنه، وما جرى لبن سالم وفقدانه لداره وأملاكه، جعله يتحرق للانتقام، وكان لويس، ولده الشاب، أكثر احتقانا منه، واستطاع هو وصديقه الأصغر عمرا حامد بن قمرين، أن يدخلا في صفوف الكبار الذين كانوا يخططون للثورة ضد القشتاليين، وكلفوا لويس وحامداً باستخدام الكناريات سرا للتواصل مع كريم كاسياس وغيره من الموارِكة خارج إشبيلية وداخلها، ثم امتد نطاق تراسلهم ليستفيد منه كاسياس في التواصل مع المناطق البعيدة خاصة جبال الثلج والجبل الأحمر وضواحي غرناطة

اتخذ حاكم إشبيلية قرارات عدة لمنع تربية الحمام، واصطياده، إضافةً إلى عقوبات مخيفة لكل من يربيه ويؤويه أو يعتني به، ومنها إرساله للعمل سخرة على سفن الأسطول، وكان الموارِكة يعرفون أنَّ معنى العمل على سفن الأرمادا، هو القيام بالتجذيف لحوالي 20 ساعة في اليوم وبظهور

عارية كي يضرب بالسياط أي متراخ في التجذيف، مع قلة الطعام، وكثرة حالات التخلص من المرضى أو المعاقبين بإلقائهم في البحر..

ومع كل هذه الإجراءات العنيفة، لم يكن أمام بعض الموراكة إلا الاستمرار في استخدام الحمام لأنّهم كانوا عازمين على الثورة فقد تصاعد تذمر الموراكة بسبب تطبيق القرارات الصارمة لفيليب الثاني التي صدرت في ذكرى دخول الجيش القشتالي لغرناطة، لكن حادثة الحمامة مع الفونسو واعتقال بن سالم أثّرا كثيرا على نشاطاتهم، فقد غدت مطاردة مربي الحمام الشغل الشاغل للفونسو ورجاله، بل إنّه وبعد أنْ كثر اصطياد الطيور، لجأت الكناريات غريزيا إلى أعلى البنايات الشاهقة ومع هذا تابعوها حتى في برج الأجراس أعلى كاتدرائية إشبيلية، والذي حل محل المئذنة، فقد صار ملجأ آمنا للكناريات فلم يستطيعوا إيذاءها وهي تختل فيه أو حتى عليه، وكان منظرها وهي تتجمع أعلاه مزعجا ومثيراً لغضب الفونسو الذي سرت الشائعات بأنّه سيكون حاكم إشبيلية قريبا، ولحل المشكلة والتخلص من طيور الشياطين كما يسمونها، تفتقت الأذهان عن فكرة اقتبسها المهندس والنحات القشتالي (هيرنان رويث) من قراءته عن أحد تماثيل قصر الحمراء في غرناطة، فقام هذا النحات وبدعم وتحمس حكومة إشبيلية بنصب تمثال لفارس يحمل رمحا على قمة المئذنة، ويرتكز الرمح على محور متحرك لتديره الرياح حسب وجهتها، سمي هذا التمثال بالخيرالدا أو دوارة الرياح واشتهر بعروس إشبيلية وكذلك بوردة

الرياح لأنّهم بواسطته تمكنوا من إخافة الحمام من أن يحط على أبراج الكاتدرائية كلها، كانت الحمائم في البداية تفر من الفارس ورمحه كلما حركته الرياح، لكن كثرة تحرك التمثال بفعل الرياح المستمرة في الأعالي والمتغيرة الاتجاهات، جعلت الحمام يهجر برج الكاتدرائية نهائيا، لقد انتصروا بفضل تمثال الخيرالدا على سحر الموريسكيين وحمائم الشيطان، هكذا يقولون..

وخلال نشوته وفرحه بهذا الانتصار عرف الفونسو صدفة أنَّ سبب تسميتهم لها بالكناريات، مع أنّها حمامات وليست كناريات، هو اعتزاز الموريسكيين بقمرين، لذلك اتخذوا من اسم ابنتها كناري اسما لطيورهم الشيطانية، وأخبره أحد أفراد حاشيته أنّ السبب بهذه التسمية يعود إلى جمال كناري بنت قمرين، وهكذا دار في حضرة الفونسو نقاش طويل تخلله التهكم بالموريسكيين وحماماتهم..

-قمرين، ماذا تسمون حماماتكم اللعينات؟

"سألها الفونسو بعد أنّ قصد بيتها وحوله عشرون فارسا مدججا بالسلاح".

-لقد تخلصنا منها دون الفونسو، تخلصنا منها جميعا بعد أوامر أبينا القس.

-أعرفُ، سؤالي ماذا كنتم، تسمون بنات الشيطان، حماماتكم؟

-ماذا نسميها، حمامات أو طيوراً، دون الفونسو.

-ما اسم ابنتك؟

-كناري سيدي (قالتها خائفة متلعثمة، واستشعرت الخطر)

-وتسمون الحمام كناري ها؟

-لا سيدي، أقسمُ بالعذراء مريم سيدي، لا أسميها هكذا، ربما غيرنا.

-أين ابنتك كناري؟

-مريضة دون الفونسو، هذه صغيرة، لا شأن لها بالطيور.

-نادِيها.

أتوسل إليك دون الفونسو، ابنتي لم تفعل شيئا (قالتها وهي تبكي وجثت تتوسل به.)

-لا، لا تخافي فقط أريد أن أراها، لأسألها هي.

-سيدي المبجل أرجوك سيدي، أنت كاثوليكي صالح وهي طفلة بريئة، وهي تكره الحمام مثلكم سيدي ولا تصبغ يديها بالحناء ولا تستحم.

-اسمعي قمرين، قلت لك لا تخافي، هاتها بسرعة وإلا..

هرعت قمرين إلى داخل الدار، لكن الفونسو لم ينتظر، ودخل خلفها، كانت كناري واقفة تسمع الحوار، وندت من قمرين شهقة حين شعرت بالفونسو خلفها..

-ها كناري كيف حالك؟ أرني وجهك.

كانت كناري متلفعة بشال يخفي نصف وجهها كعادة الأندلسيات في الاحتشام، وترتدي جلبابا فضفاضا يغطي ثوبها وسروالها النازل إلى القدمين .. نظرت إلى أمّها كأنها تستنجد بها، ثم أرخت شالها، وكانت قمرين تتابع نظرات الفونسو، وأدركت بحس الأنثى نواياه حين تفرس بوجهها وقال:

-ابنتك جميلة قمرين، كأنها قمر، لهم الحق يسمون الحمام باسمها، ثم رمى كناري بنظرة وقحة وخرج..

كتبت مارتينا الموريسكية تعليقا موجزا:

يوم الطين

"قصر الطين الذي كان يسكنه الفونسو بناه خيري بن سالم أحد أغنياء الأندلس وصار من بعده ملكا لأولاده حتى آلت ملكيته للجد الثاني لابن سالم الحالي واسمه سالمين وبعض كبار السن من الموريسكيين إلى الآن يسمونه قصر سالمين ويتحسرون على صاحبه وقد قامت الكنيسة بمصادرته لسبب لم تذكره مصادر التاريخ وقبل سنوات اشتراه

الفونسو، وكان بن سالم لا يفوت مناسبة إلا ويذكر فيها قصره المغتصب، ومن شدة تعلقه به بنى داره كأنموذج مصغر لقصر الطين لكنه موه واجهته وحيطانه الخارجية لئلا يلفت انتباه الفونسو ويثير غضبه."

وبعد ساعات أضافت مارتينا توضيحا آخر:

(اعتماد الروميكية حبيبة المعتمد بن عباد أمير إشبيلية الأندلسي وزوجته، رأت يوما من شرفة قصرها فلاحات يمشين في الطين وكن يغنين وهن فرحات، فاشتهت أنْ تفعل مثلهن وتمشي في الطين، فأمر المعتمد بأنْ يعجن الطين بالمسك والعطور كي تمشي فيه، وسمي هذا اليوم بيوم الطين)

ثم نزل تعليق ثالث، لم يوقع باسم..

"ومن أضاع الأندلس وجعلنا نسكن في هذا المخيم غير يوم الطين وأمثاله!"

أدركت قمرين أن كناري غدت هدفا لهذا الطاغية، ولم تُضع أي وقت وقررت المجازفة، دعت حامداً، وقالت له:

-سافر بأختك خارج إشبيلية، قل لمعارفك، خاصة النصارى القدماء منهم، أنّك ستأخذ أختك للعلاج في قرطبة، مرضها خبيث، قل هكذا لأكثر من شخص، اليوم افعل هذا لينتشر الخبر، ثم اخرج بها ليلاً.

-إلى أين يا أمي؟ إذا غبت أنا معها سيؤذونك أنت، ويقولون أنّي ذهبت إلى كاسياس.

-لا أوصلها هناك، اسمع تأخر معها بضعة أيام وزوّجها لكريم كاسياس، هذا الحل الوحيد، لا نترك ابنتنا لوحدها وهي غير متزوجة، زوجها لكريم، أخبر عمنا علي الخير ودعه يتولى الأمر، ثم عد إلي، ما رأيك؟

-عين العقل أمّي، بإذن الله سأفعل..

واصل المواركة الاعتماد على ما تبقى من حمامات لتبادل الرسائل سرا، ووطنوا أنفسهم على الثورة بعد التطبيق العنيف لقرارات فيليب الثاني، وكان حامد بن قمرين ولويس وأبوه بن سالم من الناشطين في داخل إشبيلية، إلى أنْ قامت ثورة الأندلس بعد عام من إغلاق حمام قمرين، وقتها غادر لويس الناجي الوحيد من أهله إلى مكان مجهول ورافقه حامد بعد ترتيب سفر أمّه وأخيه عمار مع بيتر باستن الهولندي، حيث اكتروا قاربا ونزلوا في نهر الوادي الكبير إلى منطقة على الساحل بين ولقا وقادس، ومن هناك أبحروا إلى شاطئ البرتغال القريب..

أما في إشبيلية فقد جرت المذابح على الموراكة، صغارا وكبارا، حتى النساء والأطفال منهم، بل ذبحوا حتى الرضع انتقاما من آبائهم المشاركين في التمرد ضد صاحب الجلالة..

***

هكــذا صــديقي خــتم الإشــبيليون حكــايتهم كنــاري أو كناريــات لكــنهم وبإبــداع تركــوا النهايــات مفتوحــة وهــذا يعنــي أنّهــم ســيعاودون توليــد حكاية جديدة، أو، أكثر.

لاحــظ صــديقي، أنَّ جملــة السرــد الخاصــة بــإغلاق الحمامــات أخــذت أغلــب أوقــات المخــيم، ولا شــك أنَّ التنــافس الواضــح بــين الغرنــاطيين وإشــبيلية هــو الســبب، وهــذا كــما تعلــم يعــود لتــاريخ العلاقــة بــين المــدينتين في الأنــدلس، وخاصــة اشــتراك أمــير غرناطــة وفرســانها في حصــار إشــبيلية ومســاعدتهم للجــيش القشــتالي، ويــرون أنَّ غــدر غرناطــة هــو الســبب الأهــمّ لســقوط إشــبيلية، بســتان ملــوك الأنــدلس، كــما تصــفها إحــدى مخطوطــات الخميادو.

أرى أنّنــي كتبــت لــك الكثــير، لكــن، قبــل أن أتركــك، سأكشــف لــك عــن جولــة أخــرى مــن التنــافس بــين إشــبيلية وغرناطــة، إذ إنّهــما مــع الحكايــة القادمــة التــي أبــدعتها خيمــة غرناطــة، ستشــتركان في شخصــية ثانيــة بعــد خلافهــما حــول كــريم كاســياس، باختصــار قمــرين هــي موضــع التنــافس القادم.

في أمان الله

لـــولا غرناطـــة لمـــا كـــان لقمـــرين شـــأن ولمـــا كـــان حمامهـــا موجـــودا، هكـــذا صدرت غرناطة حكايتها بانفعال، وكان عنوانها الرئيس هو..

نقلا عن إحدى المخطوطات المكتوبة بلغة الخميادو، والتي عثر عليها مخفاة في جدار عمال بناء خلال هدمهم لمنزل قديم في باجي ديل خالون، في أراغون، وحفظت في جناح الخميادو في مكتبة الإسكوريال..

تقول المخطوطة الموريسكية:

حامد الملاح الأندلسي- المعروف بالملاح خوان رودريغو، واشتهر أيضاً باسم

رودريغو دي تريانا، هو الذي رافق القبطان الجنوي كرستوف كولمبس في رحلته لاستكشاف الهند عن طريق الإبحار غربا، وكان أول من شاهد الأرض الجديدة

"كما ثبت هذا كولمبس بخط يده في دفتره المحفوظ الآن ضمن ملفات دي أندياس في إشبيلية.."

وكولمبس الإيطالي، كان مغامرا ومتعصبا لكاثوليكيته، فشارك مع القوات الجنوية في حصار غرناطة الأخير، قاتل على أبوابها، وكان في سانتافي، معسكر إيزابيلا وفرديناند وبعد أشهر من سقوط غرناطة تسلم التفويض الملكي بالإبحار غرباً بحثا عن طريق جديد إلى الهند، لا يسيطر الأتراك والمغاربة عليه..

ومــع كــولمبس، في نفــس الرحلــة، شــارك المـلاح حامــد رودريغــو، الــذي كــان مقشتلاً وموجودا مع جيش قشتالة المحاصر لأهله في غرناطة..

"وبالإضـــافة إلى كرســـتوف كـــولمبس، أكّـــدت هـــذا وثـــائق المركيـــز أوف كاديز الذي كتب عن رحلة كولمبس الشهيرة.."

لكننــا – تقــول خيمــة غرناطــة – لا نؤيــد مــا ذكرتــه المخطوطــة بــأنّ حامــداً كــان مقشــتلا، فــربما كــان حامــد أو خــوان رودريغــو مضــطرا للتواجــد مــع القشــتاليين حفاظــا عــلى حياتــه مــن ســطوة محــاكم التفتــيش وشــكوكها، كــما اضــطر الغرنــاطيون للمشــاركة بشــكل رمــزي وغــير مــؤثر في حصــار إشبيلية..

كما أنّ مخطوطة أخرى من نفس الرزمة، تقول:

إنَّ الحــاج هــلال رودريغــو رحمــه الله والــد حامــد، دأب وبصــبر وتســتر عــلى تعلــيم ولديــه بــدر وحامــد، الكتابــة بالعربيــة وقــراءة القــرآن، وكــانوا مــواظبين عــلى الصــلاة والصــوم في ظــروف لا يقــدر صــعوبتها إلا الله العــالم وحــده بــأسرار خلقــه، ولهــذا نــرى أنّ حامــدا رحمــه الله كــان مضــطرا للتواجــد في معركــة الأنــدلس الأخــيرة وأنّــه ربــما شــارك مــع كــولمبس في مغامرتــه البحريــة عــلى خطورتهــا، هربــا مــن بطــش قشــتالة ولكــي لا يشــترك ثانيــة في أيّ موقف مشابه.

وبالأموال التي عاد بها من رحلاته، بنى الحمام المعروف باسم ابنته قمرين، ومن هنا - بفضل غرناطة - جاءت شهرة قمرين وحمامها.

احتجاج خيمة إشبيلية

"حول اتهام حامد الملاح، احتجت خيمة إشبيلية وطلبت ذكر السبب الآتي والثابت تاريخيا بدلاً عن إثارة الشبهات للإيحاء باتهام لا دليل عليه.."

استنادا إلى ما ذكرته مراجع تاريخ مختلفة في مكتبة الإسكوريال، أوردت خيمة إشبيلية الآتي حول الملاح الأندلسي الإسباني خوان رود ريغو:

خوان رودريغو

إنَّ الملاح خوان رودريغو كان من موريسكيي إشبيلية التي خضعت لتسلط قشتالة قبل قرنين من سقوط غرناطة، لكنه كان متسترا بالكاثوليكية ولم يكن مقشتلا قطّ، فأبوه هو الحاج هلال، الذي حمل الاسم المسيحي كروس رودريغو، وسمته الكنيسة بـ (كروس) ردا على كلمة الهلال التي هي رمز المسلمين مقابل الصليب رمز النصارى القدماء وكروس أو كروث تعني بالقشتالية الصليب.

كان الحاج هلال تاجرا، وفي سفرته - التي حج خلالها سرا - خرج بذريعة التجارة من قشتالة بحرا إلى جنوى، وكان ابنه حامد معه، وهو الملاح خوان رود ريغو، وهناك التقى بكرستوف كولمبس وأصبحا صديقين من دون أنْ يعرف كولمبس أنَّ هلالاً وابنه كانا مسلمين. ومنه،

من الحاج هلال لا من غيره، عرف كولمبس حكايات عن رحلات بحرية للأندلسيين من الساحل البرتغالي تجاه الهند وبطريقين..

احدهما جنوبا مع سواحل المغاربة والزنج، والثاني إلى الغرب بمسار بحري مستقيم ولكنه حافل بالأخطار لاضطراب تلك البحار وتقلبات النوء فيها..

ثم افترقا، ورحل هلال لأداء فريضة الحج تاركا أغلب تجارته عند ابنه حامد – وكان شابا ذكيا – ليتاجر بها ويشتري بضائع يعودا بها إلى إشبيلية بعد عودة أبيه من الحج كي لا يتهمها رجال الكنيسة بالذهاب إلى الأتراك أو المغاربة للتآمر كما يفعل العديد من التجار والبحارة المواركة..

فكرة الإبحار إلى الهند شغلت ذهن المغامر كولمبس فتمسك بصداقة حامد، وأسفر تواجد حامد الشاب الأندلسي الوسيم بصحبة كولمبس عن تبادله الحب مع كارمن ابنة كولمبس فتزوجها بعد عودة والده الحاج هلال، ثم أبحروا جميعا إلى قشتالة ومعهم كولمبس..

نضجت فكرة الإبحار عند كولمبس وقرر عرضها على ملكي قشتالة وأراغون، بعد أنْ فشل في إقناع غيرهم بتبني الرحلة وتمويلها، وكان الملكان في سانتافي عند

أسوار غرناطة، فقصدهما ومعه صهره حامد الذي كان يرى في هذه الرحلة خلاصا له من بطش محاكم التفتيش وتهديدها الدائم لحياة أيّ موريسكي في كل لحظة..

" وانفرد مصدر موريسكي، مجهول المؤلف: أنّ حامداً كان يضمر غرضا آخر لم يكتشفه القشتاليون إلى الآن، وهو السعي للبحث عن فرصة لمساعدة إخوانه المحاصرين في غرناطة كما أوصاه أبوه، إذ كان ممنوعا على أيّ موريسكي أنْ يتحرك خارج مدينته خلال حرب غرناطة الأخيرة خشية من اشتراكهم في القتال لصالح غرناطة."

أقلعت سفن كولمبس بعد أشهر من دخول الجيوش الكاثوليكية لغرناطة، وكان حامد قد لاحظ فرح كولمبس وكارمن بهزيمة الأندلسيين، لكنه لم يبدِ لهما شيئا، ولم يبح لزوجته بسره، والتي لم تكن تعرف شيئا عن الموريسكيين ولا عما يتعرضون له، أبحر كولمبس ومعه خوان رودريغو وكارمن، وشاءت الأقدار والخبرة بالبحار أنْ يكون الملاح الأندلسي- حامد المسمى خوان رودريغو، هو أول من يرى الأرض الجديدة، لذاك - تقول خيمة إشبيلية - أقام الإسبان تمثالا لحامد في إشبيلية تكريما له، قريبا من مكان الحمام الذي شيده خلال حياته ودفن في زاوية منه تجاه الكعبة شرقا، كما أوصى ابنته قمرين، وأوصاها بإخفاء معالم القبر، ومن بعده تولت قمرين إدارة الحمام حتى أغلق وهدم..

بعـــد هـــذه الإضـــافة أو التعـــديل لحكايـــة حامـــد المـــلاح، تـــدخلت خيمـــة قرطبـــة للمرة الأولى بحكاية ثانوية لكنها مهمة..

هلال القرطبي

حامـــد أو خـــوان رودريغـــو هـــو ابـــن الحـــاج هـــلال القرطبـــي الـــذي غـــادر أبـــوه ســـعيد وبعـــض أهلـــه قرطبـــة وســـكنوا إشـــبيلية، وفيهـــا ولـــد الحـــاج هـــلال وتعلـــم مـــن والـــده معـــالم الـــدين والقـــرآن والعربيـــة، ولـــه بعـــض الرســـائل بلغـــة الخميـــادو في كيفيـــة تربيـــة الأولاد وتزكيـــة أنفســـهم في زمـــان النصـــارى، منهـــا رســـالته (الحفـــاظ عـــلى طهـــارة الأولاد بعـــد ضـــياع الـــبلاد) وكـــان عـــاملا بـــما يكتـــب، إذ كـــان يعطـــي لولديـــه بدر(اســـمه بالقشـــتالية بيـــدرو) وحامـــد، دروســـا يوميـــة، ويشـــدد الوصـــية علـــيهما أنْ لا يـــتكلما، وفي أخبـــار وقعـــت تحـــت أيـــدينا قبـــل دخولنـــا المخـــيم بأيّـــام مـــا كتبـــه بـــدر(بيـــدرو) عـــن كيفيـــة اختبار والده له:

كنـــت صـــغيرا في الســـابعة أو أقـــل عنـــدما بـــدأ أبي الحـــاج هـــلال بـــن ســـعيد القرطبـــي باختبـــاري، أخـــذني إلى غرفـــة منعزلـــة آخـــر الـــدار وقـــال لي: لا تخـــبر أحـــدا بـــما ســـأفعله معـــك.. وشرع في تعليمـــي كيـــف ألفـــظ الآيـــة (بســـم الله الـــرحمن الـــرحيم (وكنـــت أعرفهـــا، ســـمعتها منـــه كثـــيرا وهـــو يصـــلي بعيـــدا عنـــا وكنـــا أنـــا وحامـــد نراقبـــه مـــن دون أنْ يعلـــم، وفـــرح عنـــدما عـــرف بـــذلك، دمعـــت عينـــاه وقـــال الحمـــد لله وســـجد، ثـــم بـــدأ تعليمـــي كتابـــة حـــروف كلمـــة بســـم، طـــال الـــدرس وقتـــا قصـــيرا، فقـــال لنخـــرج، وأكـــد عـــليّ، لا تخـــبر أيّ

أحــد، لا أخــاك حامــداً ولا حتــى أمــك بــما جــرى بيننــا، أريــدك أن تكــون رجــلا ولا تقــل لأيّ أحــد، أيّ إنســان، مــن داخــل البيــت وخارجــه، ثــم قبلنــي وخــرج هــو أولاً، ثــم خرجــت أنــا لكــي لا تنتبــه أمــي طيــب الله ثراهــا، فقد ماتت حزينة مظلومة.

بعدها نادتني أمي وقالت لي:

-ماذا كنت تفعل أنت وأبوك؟

فلم أخبرها بالصحيح وراوغت في الكلام.

قالت: أنا أعرف ما فعلتما، أكان يعلمك شيئا؟

-قلت لا، ولم تفلح في جعلي أكشف السر..

عنــدها ظهــر والــدي وكــان مختبئــا يســمعنا واحتضــنني، فقــد كــان ذاك اختبــارا رتبــه أبي ليعــرف هــل ســأكتم السرــ أم أكشــفه، وهكــذا واصــل تعليمــي وتعريفــي بتــاريخ قرطبــة عاصــمة الأنــدلس، حــدثني عــن أهــل الأنــدلس، تــاريخهم، كيــف اختلفــوا، وكيــف ضــاعت الأنــدلس كلهــا بســبب اختلافــاتهم، قــص عــلي مشــاهداته في مــدن الأنــدلس الأخــرى وعــن تــاريخ المســلمين، وكيــف يعــيش المغاربــة، وأســماء علمائهــم وأمــرائهم، كــما ذكــر لنــا قــوة دولــة الخلافــة العثمانيــة وفتحهــا القســطنطينية وخــوف الــدول الأخرى منها، وعمل مع أخي حامد بنفس الطريقة.

كنا أنا وأخي حامد نتبادل المعلومات، وأحدنا يختبر الآخر، وعرفنا بعد أنْ كبرنا أنَّ أغلب الموراكة كانوا يعلمون أبناءهم مثل أبي.

خيمة إشبيلية، تعقيبا على حكاية هلال القرطبي، نشرت وبسرعة حكاية مؤثرة أضاءت الشطر الأخير من قصة الحاج هلال القرطبي كما تسميه خيمة قرطبة، أو الإشبيلي كما تشير الوقائع التالية الموثقة تاريخيا..

مع أنّه يحمل رسميا اسم كروس رودريغو، إلا أنَّ جميع سكان إشبيلية يعرفون اسمه الأندلسي هلالاً، وأغلبهم، حتى القشتاليين منهم يناديه به، وهذا نادرا ما يسكت عنه، لكنه كان تاجرا معروفا، والكثير من رجالات الدولة والكنيسة حققوا أرباحا مغرية من اشتراكهم معه في تجارته التي عادة ما تكون مع الموانئ المهمة في الساحل الإيطالي كالبندقية وجنوى وفلورنسا، كان يتاجر في أيّ شيء، ولم يتعرض يوما للخسارة، خلافاً لغيره مما مكنه من جمع ثروة كبيرة، حماها بمشاركة المتنفذين القشتاليين معه، وكان يقول لأبنائه ومعارفه الثقاة من الموراكة (مالك دون نفسك، ونفسك دون دينك.)

ليبرر عمله التجاري مع القشتاليين ويحث الموراكة على التمسك بالإسلام مهما قست الظروف وصعبت الأحوال، كان كثير التوكل على الله، لا يفتر عن الدعاء، ويوصي بالدعاء كسلاح ما بعده سلاح للمستضعفين الصادقين كما يقول، فرافقه التوفيق أينما توجه، حتى إنّه بزّ التجار اليهود، المارانوش، وتغلب عليهم، فاشتغلوا للإيقاع به، أنزلوا الأسعار متعمدين أكثر من مرة، وقاموا بمضاربات واحتكار للبضائع، كل ذاك ليخسر هلال ويتورط مع شركائه من القادة والقسس، لكنه كان يدرك مقاصدهم، وإذا ما تعرضت إحدى صفقاته للخسارة، كان يتحمل الخسائر لوحده، معتمدا على ما يملك، ولا يخبر

شركاءه الذين لا يعملون عملا سوى استلام الأرباح، لكنهم حين يصل إلى أسماعهم ما فعله هلال من تحمل للخسائر لوحده، تزداد مكانته عندهم ولا يتركون مناسبة دون كيل المديح لهذا الكاثوليكي المخلص، ولا يكتفي بهذا بل كان يؤمن لهم الأرباح فوق ذلك، وكان مديح القشتاليين ونجاح تجارته يزيد من عداوة اليهود المارانوش له، ومن أشدهم

عدواة وكيدا له، هو نقيب المارانوش في حي الخودرية، اليهودي المتنصر، زئيف شاليط، والذي حمل بعد تنصره، اسما مسيحيا قشتاليا، هو، خورخي خوسا، لكن خورخي هذا لم يكن يُظهر لهلال سوى المودة الزائفة والتزلف، وكان سلوكه مكشوفا لهلال، حاول مرة أنْ يناديه بالعربية هكذا:

-سباخ الخير هاج هلال، كيف هالك؟ فنهره هلال قائلا بصوت عال ليخيفه كي لا يعيدها ثانية:

-اسمع خورخي إذا كنت مسيحيا مارانوش عمدتك الكنيسة المقدسة فلا تتحدث بكلام ذهب مع أهله، ولا أظنك ما زلت يهوديا.

-لا لا، دون هلال، أرجوك لا ترفع صوتك، الحيطان لها آذان، (ثم تلفت يسارا ويمينا وقال بالقشتالية بصوت هامس) الكلام العربي أنتم أهله حاج هلال.

أدرك هلال أنّه كرّر مخاطبته بلقب حاج ليرد على التهديد بمثله وليخبره أنّه يعرف بقصة ذهابه سرّاً إلى الحج، فقال:

-لم أحج بعد إلى شانت ياغوب (سانت ياغو)، ولا تتكلم معي بغير لغة الكنيسة بعد الآن، أفهمت؟

-مفهوم، كروس رودريغو، مفهوم..

كثرت مكائد اليهود له، وفي إحدى المرات ذهبوا إلى أسقف إشبيلية ليقولوا له إنَّ كروس رودريغو، حين يجلس للصلاة في الكنيسة يقرأ آيات من كتاب المسلمين القرآن، ولا يردد الصلاة مع المؤمنين كما نفعل نحن المارانوش المخلصين لسيدنا الأسقف وللكنيسة المقدسة، غضب الأسقف واستغرب، لكنه أراد التأكّد، فأمر ابن أخت له يدعى ريغا وكان يثق به وأوصاه:

-اجلس خلف كروس رودريغو بعد أن تبدأ الصلاة كي لا يشعر بك وتنصت عليه إذا كان يتكلم بلسان الكفرة المغاربة أم لا، وتعال وأخبرني فوراً، أخبرني قبل خروجه من الصلاة، وكان الأسقف ينوي اعتقاله في الكنيسة حالا إذا صدق كلام المارانوش..

كانت أصوات المصلين خافتة وجميعهم يشتركون في الصلوات وأغلب الموريسكيين كانوا يحركون شفاههم فقط، من دون أن يلتفت أحد إليهم، لكن ريغا مد عنقه وقرب أذنه من هلال بشكل لاحظه

الموجـــودون – في الخلـــف – وفي اللحظـــة التـــي اســـتطاع فيهـــا ريغـــا الإنصـــات جيـــدا لخفـــوت صـــوت كـــروس رودريغـــو كـــان المصـــلون يرتلـــون الســـلام عـــلى ماريـــام، فـــارتفع صـــوت هـــلال مـــرتلا الســـلام عـــلى مـــريم بصـــدق ومـــن أعـــماق قلبـــه ودمعـــت عينـــه وكـــرر الترديـــد فـــرآه ريغـــا دامعـــا وســـمعه وهـــو يكـــرر السلام على ماريام، فقام ريغا إلى خاله بسرعة وهمس منفعلاً:

-كـــان يبكـــي يـــا خـــال، يبكـــي وهـــو يصـــلي للعـــذراء ماريـــام، صـــلى بلغتنـــا، أنـــا، أنـــا لم أســـمعه جيـــدا، لكـــن حتـــى لـــو صـــلى بلســـانهم، فقـــد كـــان يصـــلي بإخلاص لشفيعتنا العذراء يا خال..

بعدها علم هلال بما جرى، فقال له ولده بدر:

-هـــذه مـــن دســـائس زئيـــف الوســـخ يـــا أبـــتِ، لمـــاذا لا توقـــع بـــه وتشـــتكيه إلى شريكـــك دون فرانسيســـكو وإلى الأســـقف نفســـه، عنـــدما تســـلمه أرباحـــه؟ ألم ينتقد القشتاليين أمامك ويسخر من كنيستهم؟

-لا يـــا بنـــي، ســـيحرقونه، وإذا حـــدث هـــذا بســـببي، فســـيعذبني ضـــميري، ثـــم مـــاذا أقـــول لله غـــدا، لا يـــا بنـــي، مهـــما كنـــت مظلومـــا لا تفكـــر هكـــذا، لســـنا يهوداً ولا قشتاليين لننتقم هكذا.

بعـــدها ارتفعـــت مكانـــة هـــلال أو كـــروس رودريغـــو في إشـــبيلية فقـــد سرت الأخبـــار بـــأنَّ ابنـــه خـــوان رودريغـــو شـــارك في حـــرب غرناطـــة وأنَّ الملكـــة إيـــزابيلا إكرامـــا لـــه أرســـلته في البعثـــة البحريـــة الاستكشـــافية مـــع الجنـــوي

كـــولمبس، جعـــل هـــذا الخـــبر هـــلال وأهلـــه في وضـــع جيـــد في إشـــبيلية، وخـــلال هـــذا أصـــدرت إيـــزابيلا عـــام 1492 قرارهـــا بطـــرد اليهـــود المـــارانوش مـــن كـــل أراضي قشتالة وأراغون..

زئيـــف بعقلـــه اليهـــودي لم يجـــد مـــن يأتمنـــه أفضـــل مـــن هـــلال، أموالـــه، ذهبـــه، ثروتـــه المحمولـــة ستسرـــق كلهـــا إن لم يخفِهـــا عنـــد رجـــل أمـــين، ويهـــرب بنفســـه، فـــأسرع بمغـــادرة الخودريـــة وهـــو الحـــي اليهـــودي في إشـــبيلية، خـــرج متنكـــراً، لم يجـــد هـــلال في داره، عـــرف أنّـــه في الكاتدرائيـــة فقصـــده، التقـــاه يتمشـــى لوحـــده في بهـــو البرتقـــال، في كاتدرائيـــة إشـــبيلية، كـــان هـــلال يحـــب المجـــيء لبهـــو البرتقـــال، المكـــان هنـــا يـــذكره بعظمـــة الأنـــدلس وأنفـــاس أهلهـــا ومـــا قـــرأه عـــن حلقـــات الـــدرس هنـــا تعبـــق بصـــدره وتمـــلأ روحـــه بـــما يحـــب، وهـــو عـــلى هـــذه الحـــال، وقـــف أمامـــه زئيـــف متنكـــرا بـــزي قشـــتالي وتوســـل إليـــه أنْ يخفيـــه عنـــده كـــي لا يقتلـــوه، رقَّ قلـــب هـــلال لـــه، وأخـــذه معـــه إلى الـــدار، ولم يكـــن تطبيـــق قـــرار الطـــرد قـــد بـــدأ في إشـــبيلية، بقـــي عنـــده ليلتـــين، خلالهـــما أنـــذروا المـــارانوش بـــالتهيؤ لترحـــيلهم عـــن إشـــبيلية بعـــد أيـــام، وكـــان ابـــن زئيـــف واســـمه شـــلومو، قـــد عـــرف بمكـــان أبيـــه وجـــاء إلى دار هـــلال ليطمـــئن عليـــه كـــما قـــال، لكنـــه بعـــد أنْ خـــرج توجّـــه إلى مبنـــى ديـــوان التفتـــيش ليشيـــ بهـــلال وأبيـــه، أراد شـــلومو (اســـمه المســـيحي شـــارل) الاســـتيلاء عـــلى ثـــروة أبيـــه وفي نفـــس الوقـــت أراد أن يثبـــت للكنيســـة إخلاصـــه لهـــا ولقشـــتالة، وهكذا قبض على زئيف في بيت هلال وقبض على هلال أيضا..

صـــودر ذهـــب زئيـــف ومجوهراتـــه وســـحل مقيـــدا وأشـــبع ضربـــاً وركـــلاً، ولم يـــتم التأكـــد مـــن مصـــيره أو مصـــير ولـــده شـــلومو، لكـــن ديـــوان التفتـــيش حكـــم بـــإحراق هـــلال حيـــا لتـــآمره عـــلى قشـــتالة وخيانتـــه وارتـــداده عـــن الـــدين المقـــدس، ونفـــذ الحكـــم في إشـــبيلية علنـــا، وكـــان خـــوان رودريغـــو- ابنـــه - لم يزل في البحر مع كرستوف كولمبس.

دخـــل المخـــيم ثانيـــة في حـــراك النقـــاش الأدبي والتـــاريخي حـــول حكايـــة حامـــد المـــلاح، واحتـــدم أشـــد بعـــد أن أنزلـــت غرناطـــة حكايـــة أخـــرى تظهـــر تـــأثيرات غرناطـــة وأبنائهـــا في حيـــاة قمـــرين الإشـــبيلية، وهكـــذا يـــا صـــديقي، مـــا إن نجحـــت حكايـــة مايوركـــا حتـــى ادعـــت غرناطـــة بانتســـاب مبـــدع المايوركـــات كـــريم كاســـياس لهـــا، وحـــين أبـــدع الإشـــبيليون حكـــايتي قمـــرين وكنـــاري، دخلـــت قرطبـــة فـــذكرت أنَّ أصـــول العائلـــة تعـــود إليهـــا، وحاولـــت غرناطـــة التقليـــل مـــن تـــاريخ قمـــرين في مشـــاركتها الأخـــيرة، وبعـــد ردّ إشـــبيلية القـــوي طرحت غرناطة هذه الحكاية لتشترك بقصة قمرين عبر إبداع جديد..

بدر البشرات

يقول الأديب الأندلسي حامد فيما كتبه عن تاريخ عائلته: أخبرتني أمي رحمها الله: إنَّ جدنا بدر بن الحاج هلال، والمسمى في الكنيسة (بيدرو) لم يكن موجودا في إشبيلية عند هجوم رجال التفتيش على أبيه وأخذه بالضرب والركلات مقيدا، فقد أرسله والده إلى غرناطة لتقصي أخبار شقيقه حامد الذي أبحر مع كولمبس، وهناك بلغه خبر القبض على أبيه وإحراقه حيا بتهمة الكفر والهرطقة، وأنَّ أمَّه عرضت للبيع كجارية ولم يشترها أحد لكبر سنّها، وهي الآن في بيت أحد الموريسكيين، الذي آواها بموافقة الكنيسة..

ومنذ ذاك ندرت الأخبار عن مصير جدنا بدر المسمى بيدرو رودريغو، وأكَّد الكاتب الأندلسي حامد: إنَّ بدراً استطاع التسلل ليرى أمه للمرة الأخيرة وكانت مريضة وقتها، ويصف احتضانها لابنها بالمبكي فقد طوقته بذراعيها الضعيفتين وكانت تشمه وتبكي وترفض تركه، بينما الموريسكي الذي تسكن عنده يطلب منها الهدوء وهو يرتجف خوفا من انكشاف الأمر، وأبت العجوز أنْ تدع ابنها، حتى

انهارت قواها وأغمي عليها، فأصرَّ الرجل على أن يخرج بدر إلى مكان آخر مهيأ لاختبائه، ريثما يتوجه بعدها إلى جبال البشرات المطلة على غرناطة حيث كان يقوم من هناك مع جماعات من الأندلسيين بغارات على كل من يصادفونه من أعدائهم..

ويقــول حامــد الأندلسيـ، إنّ بــدرا بقــي يجاهــد القشــتاليين في جبــال غرناطــة ووديانهــا، مــع عــلي العطــار وغــيره، حتــى انــدلعت الثــورة في حــي البيــازين في عــام 1499، وقتهــا كــان التراســل بــين أهــل غرناطــة في حــي البيــازين وخارجهــا يــتم عــن طريــق الحــمام الــذي أتقــن أهــالي البيــازين تربيتــه وتفننــوا في تعليمــه فقــد كــانوا يتعــاطون تربيــة الصــقور والبــزاة والصــيد بهــا لــذلك ســموهم البيــازين، أي مــربي الصــقور. وتربيــة الحــمام والطيــور عــادة أتقنهــا بــدر المعــروف لشــجاعته بــ بــدر البشرــات، ومنــه انتقلــت إلى أفــراد العائلــة حتــى وصــلت إلينــا، وكانــت عــلى ســطح حمّامنــا (حمــام قمــرين) قبــل هدمــه أعــداد كثــيرة منهــا اســتخدمت في التراســل بــين الموار كــة المتواجــدين عــلى أطراف إشبيلية وشاركوا في ثورة الأندلسيين عام 1568 وما بعدها..

"هــامش لتوضــيح الــنص، تقــول خيمــة غرناطــة: هــذا يــدل بوضــوح عــلى أنَّ تربية الحمام في إشبيلية إنّما كان مصدره حي البيازين في غرناطة."

أمّا نهايات بدر البشرات وليس نهايته، فقد ذكروا له عدة

نهاية 1

بعــد قتــال عنيــف خاضــه عــلي العطــار فــرّ القشــتاليون، وأسرت المجموعــة التــي يقودهــا بــدر ثلاثــة مــنهم وكــانوا جرحــى، فــرفض الإجهــاز علــيهم متــذكرا مــا نقلــه إليــه أبــوه مــن تعــاليم المســلمين لجنــودهم، لا تقطعــوا شــجرة، ولا تقتلــوا امــرأة ولا طفــلا ولا جريحــا ولا مــدبرا وغيرهــا، لكــن

كان عليهم الاحتفاظ بهم لمبادلتهم، وكان على الأندلسيين عبور نهر حيدرة إلى الضفة الأخرى، كي يبتعدوا مسافة آمنة، وأثناء العبور وهو يحاول إنقاذ جريح من الغرق غرق هو الآخر ولم يعثر أحد على جثته.

"علق أحد المشاركين أنّ هذه النهاية غير مقبولة فنيا ولا يمكن تصديقها لشدة العداء بين الطرفين."

نهاية 2

أنّه قتل في اشتباك خلال المعارك ودفن بين صخور جبال البشرات ولا يعرف مكان قبره على الرغم من محاولات ولده خوان المتكررة في البحث عنه سرا ولعدة سنوات دون أنْ يجد لقبر والده أثراً، ويقال إنَّ ثلوج البشرات أخفته بتراكمها عبر السنوات..

نهاية 3

أنّ بدراً بقي حيا زمنا طويلا حتى أنهكت الشيخوخة والتشرد جسده فمرض، وخلال مرضه كان أحد الرعاة الإسبان يعتني به دون أن يعرفه إلى أنْ مات.

نهاية 4

وهي رواية ضعيفة تقول إنّه استطاع العبور إلى العدوة المغربية وعاش بقية عمره هناك.

لكن أحداً لم يذكر أنّه أحرق وهذا أخشى ما كان بدر يخشاه ويحذر منه، لذا كان يقاتل قتال الميت كما يصفون قتاله.

كان خوان رودريغو شقيقه، بعيدا، يأتي من رحلة ليذهب مع كولمبس بأخرى، حتى قبض عليهما، هو وكولمبس وسجنا معا، ثم أمرت إيزابيلا بأن تسجل الخرائط البحرية التي رسمها كولمبس للأرض الجديدة باسم أمريكو أحد معاوني كولمبس من البحارة الإسبان، ثم صدر عفو ملكي عنهما، وعاشا معا في إشبيلية، بعيدين عن البحر ودواوين السلطة، وهناك ماتا ودفنا، لكن كولمبس دفن تقديرا له - لأنّه من النصارى القدماء - في كاتدرائية إشبيلية، بينما دفن خوان أو حامد الملاح في الحمام الذي بناه ليعتاش منه، وإلى جواره بعد عام دفنت كارمن زوجته، وتركا ابنتهما قمرين التي ورثت حمام أبيها ثم اشتهر باسمها ((حمام قمرين)) وتزوجت من ابن عمها حفيد بدر البشرات المسمى بدراً أيضا تخليدا لذكرى جده..

"ملاحظة: إنّ اسم قمرين جاء من رغبة والدها خوان أو حامد بتخليد ذكرى والده هلال وأخيه بدر فسمى ابنته قمرين، حبا بهما، وكان كثير البكاء عليهما، خاصة شقيقه بدر الذي لم يره أبداً منذ رحلته المشؤومة مع كولمبس، فجمع اسميهما معا في اسم ابنته، قمرين أي، هلال، بدر."

(يقول الدكتور أحمد رودميرو معلقا على تسلسل الأسماء هذا:

كـأن الأمـر هكـذا – هـلال، ثـم بـدر، ثـم قمـر أو قمـرين – ولـيس واحـدا، ألـيس هـذا تشـبثا حضـاريا بالبقـاء؟ أو ردا عـلى قـرار الكنيسـة بتسـمية أبيـه كـروث أي الصـليب؟ إنّ حامـد المـلاح هنـا يؤكـد أندلسـيته، حتـى وهـو ينتصب الآن تمثالا يشير إلى أمجاد قشتالة الغابرة، كأنه يقول هكذا.)

دعنـي صـديقي أخفّـف عنـك، يـا إلهـي مـاذا أقـول؟ أي تخفيـف .. لنـترك الأمـر دون توصـيف، دعنـي أنقـل إليـك جملـة قصصـية تُركـت جانبـا كغيرهـا لاحتـدام الحكايـات حـول حمـام قمـرين، لكـن الرسـام الإسـباني يحيـى ثابـاتيرو عرضـها بـأعلى يـده حـين تحـدث الـدكتور رودمـيرو عـن الأهلـة والأقـمار، ثـم قـال ثابـاتيرو: هـذا سـبب كـل تلـك التسـميات، التمسـك الموريسـكي بـالهلال الأندلسيـ، كـرد حضـاري يقابـل تغطـرس قشتالة وسعيها لتنصيرهم بالصليب القشتالي..

كانوا يتطلعون

غـدا – سـيمتنعون عـن الطعـام سرا– أو بعـد غـد، ثلاثـة رجـال كـانوا، وثلاثـة صـبيان، وطفلتـين وكـانوا – غربـا – يتطلعـون لرؤيـة الهـلال، فلـم يـروا الخيـول وهـي تحـط علـيهم.. بعـد يـومين فقـط، وشـموا جبـاههم بالصليب، وفي عيد الميلاد أحرقوهم..

النهايـات مؤلمـة كـما هـي البـدايات، أي أقـدار سـبح الموارkة في مياههـا، صـديقي المشرـقي، وسـط هـذا الاحتـدام في المخـيم بـدا واضـحا لنـا، والـدكتور رودمـيرو أول مـن نبـه إليـه، أنَّ الأنـدلس بجميـع بلـدانها ومـدنها

وقصباتها اشتركت في تاريخها، صاغته معا، شاءت أم أبت، كل أحداثها رسمت مصيرها، فعاليات الخيام تؤيد هذا، وهو أيضاً حال عائلة قمرين، كأن سيرة تلك العائلة حيكت لتصوغ حكاية الأندلس كلها، من ساحل باسكايا أقصى الشمال، إلى الجزيرة الخضراء جنوبا، ومن كتالونيا إلى إشبيلية مرورا بقرطبة وغرناطة وطليطلة والآسرات من مدن الأندلس وقصباتها..

نهايات مؤلمة حقا، وربما آن لمخيمنا أنْ ينتهي أيضا، كما انتهت الأندلس، ربما،

رأي تداوله بعض المشاركين هنا، لكن لم يؤخذ به فتواصل الإبداع واستمرت الحكايات..

خيمة مدريد

كان الأصدقاء في خيمة مدريد معنا في أغلب الاحتفالات القصصية، وشيئا فشيئا تركوا في نفوس الآخرين ارتياحا لذائقتهم الفنية والأدبية المرهفة، كانوا أربعة، كلهم من سكان مدريد، وكلهم ولدوا وعاشوا في مدريد أيضاً، لكن كارمن وهي المرأة الوحيدة بينهم، كثيرا ما تتردد على البرتغال، فأمها من هناك، ولم تزل تعيش قريبا من سانتا فاتيما (أي القديسة فاطمة)، وكانت أغلب لوحاتها تستمد مشاهدها من ضريح سانتا فاتيما، الأطفال الذين تجلت لهم العذراء، ووجوه الحجاج المسيحيين الذين يقصدونها من أماكن بعيدة، وكارمن ليست وحدها الرسامة في خيمة مدريد، الأربعة جميعا رسامون، يحيى المدريدي، كما يحب أنْ يسمى، مهتم بالمنمنمات والأرابسك العربي، وأنجز إبداعات ذات شأن حين زاوج بين المنمنمات الشرقية وبين فن البورتريه بأسلوب جديد ومغاير لم يسبقه أحد إليه، ويحيى كالدكتور رودميرو، كان كاثوليكيا ثم أسلم، لكنه إسباني الجذور، وقشتالي تحديدا، والفنون الشرقية والعربية هي التي أسرته وجذبته للتعرف على بيئة العرب والمسلمين، حتى غاص أعمق وتعلق قلبه بالإسلام، فغير اسمه من جون ثاباتيرو، إلى يحيى ثاباتيرو، أو، يحيى المدريدي، وجون تعني بالقشتالية، القديس يحيى كما يقولون..

وحـــده يحيـــى كـــان مســـلما، والثلاثـــة مســـيحيون، كاثوليكيـــان همـــا كـــارمن وخوان بينيكاس، وبروتستانتي هو ماتيو توريش..

عائلـــة خـــوان بينيكـــاس ســـكنت مدريـــد مـــن خمســـين عامـــا، وهـــي تنحـــدر مـــن أجـــداد موريســـكيين كـــانوا يعملـــون في حقـــول الباســـك كعبيـــد بعـــد أسرهـــم أو اســـتعبادهم في غرناطـــة ونقلهـــم للخدمـــة في مـــزارع الكنيســـة في ســـان سباســـتيان، قريبـــا مـــن خلـــيج بســـكايا ومـــن جبـــال البـــيرانس عنـــد الحـــدود الفرنســـية، كـــان عـــددهم بالمئـــات كـــما يقـــول بينيكـــاس اســـتنادا لمرويـــات متوارثـــة في العائلـــة، وقـــد جـــازف بعضـــهم بعبـــور الجبـــال الشـــاهقة هـــاربين إلى فرنســـا مـــن اضـــطهاد عـــمال الكنيســـة وآخـــرون هربـــوا إليهـــا عـــبر البحـــر، أغلـــب الفـــارين لقـــي حتفـــه، عـــدا قلـــة مـــنهم مـــا زال بعضـــهم يحـــتفظ بأخبـــار بعيـــدة عن أجداده الموريسك..

خـــوان بينيكـــاس يـــرى أنّـــه مـــزيج مـــن البشـــكنس والموريســـك المطعـــم بالكاثوليكيـــة المنفتحـــة عـــلى الجميـــع كـــما يصـــف نفســـه، ويقـــول مبتســـما: أنـــا أجمـــع صـــفات إســـبانيا كلهـــا، مـــواطن إســـباني بامتيـــاز، وكانـــت لوحـــات بينيكـــاس غالبـــا مـــا تتنـــاول الســـفن ومنـــاظر البحـــر ووجـــوه عـــمال التجـــديف المربـــوطين بالسلاســـل، ويهـــتم أيضـــا برســـم أشـــكال لوجـــوه وأجســـاد منهكـــة أو منهارة على امتداد طرق طويلة..

أمّـــا مـــاتيو تـــوريش، فقـــد كـــان لأمّـــه الألمانيـــة الجميلـــة إنجـــيلا تـــأثير عـــلى أبيـــه الـــذي تعـــرف عليهـــا خـــلال دراســـته في فرانكفـــورت وأحبهـــا بجنـــون

وتزوجهـــا، فولـــد مـــاتيو في بيـــت مدريـــدي بصـــبغة جرمانيـــة وكـــان الأبـــوان يتكـــتمان قلـــيلا عـــلى بروتســـتانتيتهما، إلى مـــا بعـــد عـــام 1975، حيـــث جـــاهرا بهـــا ولم يعـــودا يهـــتمان لانتقـــادات المتعصـــبين الكاثوليـــك في المجتمـــع الإســـباني .

رســـومات تـــوريش تتنـــاول الطبيعـــة الجميلـــة والثلـــوج والمنـــاظر الهادئـــة كـــما يغلـــب عليـــه اســـتخدام الألـــوان البـــاردة المحـــلاة بظـــلال مـــن الحمـــرة الخفيفـــة أو الاصفرار الخافت المريح.

خـــلال أغلـــب الاحتفـــالات القصصـــية قـــدم الأربعـــة، تخطيطـــات أوليـــة، اسكتشـــــات ومشـــــاهد وبورتريهـــــات، تصـــــور البعـــــد المجســـــد والمتخيـــــل لمضـــامين الحكايـــات، حتـــى نضـــج عنـــدهم كـــما قـــالوا مشرـــوع لإنجـــاز لوحـــة تحتـــوي الحكايـــات كلهـــا بطريقـــة مـــا، قـــد تعتمـــد الإشـــارات أو الإيقونـــات الدالـــة وأحيانـــا انبســـاطا أوســـع لتجســـيد الحكايـــات وتقـــديمها مشـــاهد مرسومة للناظرين..

وهكـــذا انســـحبوا تـــدريجيا مـــن الفعاليـــات غـــير القصصـــية في المخـــيم وبـــدأوا بتنفيذ لوحتهم.

كنـــت يـــا صـــديقي كـــما المغفـــل، فمـــع مـــواكبتي لكـــل خطـــوات إقامـــة المخـــيم مـــذ بـــدأ عنـــدنا، أنـــا ورودمـــيرو، مجـــرد أفكـــار وإلى الآن ونحـــن نقـــترب مـــن نهايتـــه غـــير الواضـــحة لي، مـــع هـــذه المشـــاركة الفاعلـــة والمواكبـــة والحضـــور القـــوي الـــدائم منـــي، إلا أنّنـــي بـــدأت أدرك أنَّ الـــدكتور أحمـــد رودمـــيرو، رســـم كـــل

شيء من البدء وتحكم بي من دون أن أشعر، وكل ما رسمه يسير الآن وفقا لما خطط، فقد أدرك الآخرون مثلي، أنَّ اللوحة الرئيسة لرسامي مدريد ستكون المشهد الختام لاحتفالات المخيم وفعالياته، وأنا حتى في هذا ما زلت قارئا رديئا لما يجري، لكن صديقي رودميرو أقسم لي أنّه لم يرسم في ذهنه تفاصيل دقيقة للمخيم، لكنه خطط فقط الملامح العامة لمساراته، كما توقعها، وأراد لها أن تتجلى ضمن إطار يمكن من فرط شفافيته تجاوزه أو الرجوع إليه، من دون أنْ يؤثر هذا في مسار المخيم أو يترك أثراً ما..

كشف لي اعترافه، فقر مخيلتي قياسا إليه، وجعلني أقرب إلى تلميذ يتلقى أفكاره ويؤيدها، ومنها – طبعا – ما سربه عبر النقاشات والمداخلات إلى خيمة مدريد حتى اختمر عندهم مشروع اللوحة الختام ونضج..

أدعك الآن في تشوقك إلى لوحة المدريديين، وأرجو أن لا تعتبرني مغفلا فعلا إلى حد كبير، لست كذلك أكيدا، فقط أذكر لك الوقائع خالية من الرتوش، لترى بنفسك وتخلق ما تشاء بمخيلتك . سأعود قريبا، في أمان الله.

السلام عليكم، سأقص عليك اليوم ما نشرته خيمة مدريد تمهيدا على ما يبدو لمشروعهم الرئيس، كان على شكل تخطيط أولي له، ولكن بلغة السرد لا الرسم..

يحيى المجريطي

يقول يحيى أو جون ثاباتيرو: كنت كاثوليكيا لا يفارق حضور القداسات والصلاة في الكنيسة وغيرها من الاحتفالات الدينية وكنت مولعا بإعادة رسم اللوحات المسيحية الكلاسيكية كصورة العذراء مريم وطفلها ونظائرها، عدا لوحة العشاء الأخير فقد كنت رغم انبهاري بها مترددا برسمها لانتقاد الكنيسة لها إذ أظهرت السيد المسيح في جو دنيوي صاخب وأمام مائدة عامرة بالملذات والمباهج كالخمور وغيرها من أطايب الطعام والشراب، وهكذا بقيت وبقيت قدراتي الفنية محدودة لا تجتذب المشاهدين ربما لكثرة تكراراها على مرّ السنين، هكذا ظننت، لكن ملاحظتي لاهتمام زوار المتاحف والمعارض بلوحة العشاء الأخير وغيرها مما كنت أبتعد عنه من لوحات، جعلني أعيد قراءتي وآرائي، حللت العشاء الأخير واكتشفت سحر الفن وغنى الخيال فيها، ثم درست لوحات دافنشي_ الأخرى، كالموناليزا، كما تأملت أعمال غيره من الفنانين الكبار، تغيرت ذائقتي وصرت جديدا حتى على نفسي_ وأعمالي السابقة، وثمة محطتان خلال تجوالي مع الرسامين ولوحاتهم كان لهما أثر في تحولاتي ومراجعاتي لثوابتي ومعتقداتي حتى رسوت أخيرا على شاطئ الأندلس..

الأولى: كانت مع بروجل ولوحته (أمثولة العميان)، أدهشتني هذه اللوحة وغيرت في حياتي كثيرا ليس على المستوى الفني، غيرت أفكاري

ونظرتي إلى الحياة، كنت أتساءل، من يدري لعلي مثل عميان بروجل، لست أكثر من أعمى يقوده عميان، لا أعرف إلى أين أمضي، ومتى أسقط في الهاوية، لوحة بروجل الهولندي تمثل ستة عميان، يسيرون واحدا بعد الآخر، الأعمى الأول يقودهم، وكلهم يمسك بعصاه، لكنهم جميعا يرتبطون ببعضهم عبر إمساك كل واحد منهم بعصا الآخر، حتى بدوا وكأنهم يمسكون بعصا طويلة واحدة، كان الأول، قائدهم قد سقط في حفرة، والثاني انجرّ مع السقطة وهو في اللوحة على وشك السقوط، وهكذا الثالث بدرجة أقلّ، وكان العميان الآخرون يتجهون إلى السقوط منقادين خلف قائدهم من دون أن يعلموا ما يجري، ملامح الرعب والفراغ على وجوههم، ويتحركون كالدمى، هزني بروجل، كأنه يخاطبني بلوحته هذه، ومن حينها لم أعد أثق بمسلماتي وثوابتي الفكرية، كل شيء في داخلي تحرك، كأن اهتزازا ما جعله يتحرك، وبدأت رحلة بحث عن حقيقتي ومنها، بل في مقدمتها، تاريخ وطني الحبيب إسبانيا، وموقفي الصارم المتشدد من كل ما هو غير إسباني وغير كاثوليكي، أعدت قراءة تاريخ الأندلس والدور الحضاري للمسلمين في حياتنا، فقرأت للمؤرخين باروخا وكوندي وللأمريكي واشنطن إيرفنغ الذي فاجأني بحياديته أو بانحيازه المقنِع للأندلسيين وحضارتهم، قرأت أيضا القصائد السورية لشاعرنا الإسباني الكبير أنطونيو غالا، وغدا الجناح الأندلسي والموريسكي في الأسكوريال محطتي اليومية لساعتين أو أكثر حسب ما يسمح به عملي

في الغـــاليري، ويومـــا مـــا، وقـــع قلبـــي قبـــل يـــدي عـــلى مخطوطـــة موريســـكية مترجمـــة إلى الإســـبانية وقـــد وضـــع الأصـــل المكتـــوب بلغـــة الخميـــادو الخاصـــة بالموريســـكيين ونـــص الترجمـــة في مجلـــد واحـــد، رســـمت عـــلى غلافـــه معـــالم أندلسية، جانب من الحمراء ورجال بعمائم وكتابات، وغيرها.

كانـــت تلـــك المحطـــة الأولى في تحـــولاتي نحـــو الأنـــدلس كـــما يحلـــو لي أن أصـــفها، أمّـــا المحطـــة الثانيـــة والأهـــم عنـــدي، ومنهـــا حملـــت هـــذا الاســـم، يحيـــى المدريـــدي، فتعـــود إلى تلـــك المخطوطـــة وهـــي لمـــؤلفين كلاهمـــا اســـمه حامـــد، هكـــذا علـــق المـــترجم ويقـــول إنهـــما معـــا يحمـــلان لقـــب حامـــد الأندلسيـــ وهمـــا قريبـــان عـــلى مـــا يبـــدو، إذ بـــاشر الثـــاني إكـــمال مخطوطـــة الأول التـــي تركهـــا ناقصة، وكان يسميه بخالي ويذكره بعبارات الاحترام ويترحم عليه..

بنات الأندلس

يقـــول حامـــد الأندلسيـــ: إنَّ الرســـام الأندلسيـــ يحيـــى المجريطـــي (مجـــريط الاســـم العـــربي لمدريـــد) كـــان في القـــاهرة حـــين شـــهد مبـــاراة في الرســـم جـــرت أمـــام وزيـــر الســـلطنة في مصرـــ وقتـــذاك، جـــرت المبـــاراة بـــين رســـام مصرـــي اســـمه بـــن عزيـــز، كـــان قـــد تحـــدّى براعـــة منافســـه الـــذي جـــاء إلى القـــاهرة هاربـــا من بطش صاحب الشرطة في بلاده بغداد، بالقول:

-مـــولاي وزيـــر الســـلطان المعظـــم، سأرســـم بعـــد إذن مـــولاي صـــورة حيـــة لـــ "دلال "هـــذي الواقفـــة الآن أمـــام مـــولاي (كانـــت الجاريـــة الجميلـــة واقفـــة

وهـي تحمـل بيـدها إبريقـاً وكأسـا لتسـقي سـيدها مـاء) سأرسـمها تخـرج مـن هنا عبر هذا الجدار الذي أمامكم وسترونها وكأنها تدخل حقّاً فيه.

أبـدى الـوزير إعجابـه بـما قـال بـن عزيـز، ثـم التفـت إلى الرسـام العراقـي واسمه قاسم.

-وأنـت أيهـا العراقـي، مـا عنـدك إزاء رسـام قـاهرة المعـز لـدين الله، بـن عزيز؟

-إذا أذن لي مـولاي الـوزير فسأرسـم ذات الجاريـة وهـي تخـرج مـن الجـدار داخلـة إلى هنـا، وسـترى مـولاي أنهـا هـي بلحمهـا ودمهـا وبأرديتهـا هـذه وبخمارها ستدخل.

ها، أبدى الوزير السلطاني تعجبه أكثر.

-كم يوماً يكفيكما؟

-ما يراه مولانا وزير السلطان، قال قاسم العراقي.

فتنحـنح بـن عزيـز ثـم قـال: أسـبوع مـن الآن يـا مـولاي، لأنَّ جاريـة مولانـا وزيـر السـلطان تسـتحق وقتـا أطـول واهتمامـا أكثـر ممـا أبـداه ضـيفنا الـذي لا يعـرف قـدرها عنـد مـولاي، وكـذلك يـا مـولاي ليعـرف الخـبر جميـع رعايـا مولانا السلطان في القاهرة وما حولها ويحضروا العرض.

كان قاسم قد سمع تهكم الناس في القاهرة وانتقادهم لما يكنّه وزير السلطان من هيام بجاريته دلال، وأوشك أنْ يرد على كلام بن عزيز، لكن صوت الوزير أسكته وهو يقول:

-هذا أفضل، لنرى، على بركة الله وقام إيذانا بالانصراف.

"قاسم كان يدعى في بغداد بـ "قاسم الكرخي"، وكان كثير التعريض والانتقاد لكبار الدولة هناك، خاصة الخليفة الضعيف وكان يردّد دائما بيت الشعر المعروف:

(خليفة في قفص بين وصيف وبغا يقول ما قالا لـه كما تقول الببغا)

وكذلك بيت المعري

(يسوسون البلاد بغير علم فينفذ حكمهم ويقال ساسة)

(فأفّ من الحياة وأفّ منهم ومن زمن رياسته خساسة)

وكان هذا سبب هربه من بغداد بعد أنْ أمروا بصلبه ولجأ إلى القاهرة فوجد أنَّ حال الحكام في القاهرة لا يختلف كثيرا عن بغداد / هامش من المشارك العراقي في المخيم.

رفعت الستارة عن لوحة بن عزيز وانحبست الأنفاس، كانت دلال الجارية تخرج من القاعة بتغنج ودلال كأنها ترقص، وبانت تقاطيع جسدها ومفاتنه بشكل حي مثير للإغراء، وظن الحاضرون ومنهم

الوزير السلطاني وحاشيته أنّها هي فعلاً من تمشي خارجة عبر الحائط وليس صورتها، فارتبك الوزير وقام كأنه يريد أنْ يتبعها، هم بذلك لكنه انتبه لنفسه وتوقف، وقامت حاشيته والحاضرون جميعا لقيامه، وتعالت صيحات الإعجاب.

تقدم بعدها قاسم، تقدم في أناة، تطلع في وجوه الحاضرين، كأنه يستعرضها، فانشدّت الأنظار أكثر، ثم أزاح الستارة عن لوحته ببطء وهدوء، وشهقت أنفاس الحاضرين، أيّ سحر هذا، دلال التي خرجت قبل قليل بدلع وتراقص، ها هي تدخل الآن عبر الحائط ذاته بأردية طويلة، تمشي مشيتها لكن باحترام لمن تمشي إليه، حركاتها توحي بالحشمة والوقار، هي هي، دلال نفسها، من دخلت عليهم، وتعالت همهمات الإعجاب، لكن الوزير الذي وقف ثانية انبهاراً بما يراه، وبعد أنْ تجاوز لحظات الاندهاش، استغرب أنَّ قاسماً وهو يعرض لوحته أسماها (سلام) وليس (دلال)، وكتب هذا الاسم رسما على خمارها بشكل لافت وذكي ..

أخذ السلطان وقتا ليتمالك نفسه، ثم سأل قاسم ببرود:

-ما الذي دعاك لتغيير اسم جاريتنا دلال؟

-هيبة سلطان المسلمين في الديار المصرية يا مولاي، دعتني لاختار هذا الاسم، السلام هو الأليق بكم مولاي الوزير.

أعجبته شجاعة العراقي وفصاحته، وفهم تلميحاته، لكنه استغرب من جرأته، وتجرعها على مضض، فأشاح عنه بوجهه وأمر باستطلاع رأي المحكمين، على أنْ يكون القول الفصل له.

قال المحكمون رأيهم بنقاط..

-1 إنّ كلتا اللوحتين نالت الدرجة القصوى في الفن والصنعة والسحر الجميل.

-2 إنَّ الرسام العراقي كان لبيباً باختياره لرسم الجارية وهي تدخل فلا يكون ظهرها بوجه مولانا وزير السلطان، وهذا ما فات بن عزيز الالتفات إليه.

-3 لما كان الرسمان متساويين في الصنعة وإيهام الناظر بحياة الجارية وكأنها حقّاً تمشي وتتحرك، فإنَّ الغلبة تكون لمن رسم الجانب الأصعب وهو هنا ظهر الجارية لا مقدمها، ومع أنَّ بن عزيز استعان بالتفاتة غنجة من وجه الجارية، إلا أنَّ الدرجة هنا لصالحه.

-4 إنّ بن عزيز وضع جهده في الفن والصنعة فقط ولم يلتفت لتأثيرات الرسم على الناظرين وسلوكهم، بينما انتبه قاسم العراقي إلى الأبعاد الأخلاقية في لوحته وطبع بصمات مهذبة على أذواق النظارة، من خلال سلوك الجارية وملابسها المحتشمة، مما يجعل الغلبة له في هذا الجانب.

5- لكن الرسام قاسم تجاوز حدوده باختيار اسم للجارية دلال غير الاسم الذي اختاره لها بنفسه مولانا الوزير السلطاني، ونوصي بمحو الاسم من على الرسم، واعتذار الرسام عما فعل.

اطلع الوزير على آراء الحكام وأعجب بها بينما عينه ترمق اللوحتين حينا وآخر. أدرك الوزير أنّ كلا من الرسامين كان انعكاسا للبيئة التي عاشها..

فأمر أمام دهشة حاشيته بالجائزة متساوية لهما، وهمس بأذن صاحب الشرطة أنْ يصرف العراقي مكرما بعيدا عن القاهرة، ثم انصرف إلى جناحه الخاص وخلفه حُملت اللوحتان الساحرتان.

شهد يحيى المجريطي المباراة وانطبعت تفاصيل الجارية بصورتيها في ذهنه، كان في أوائل تعلّمه لفن الرسم والتصاوير، لكنه كان بارعا في رسم المنمنمات والزخرفة بالأشكال الهندسية المتناظرة والمتداخلة والمتقابلة ومبدعا فيها، وحتى بعد عودته إلى تطوان على الساحل المغربي، وهي من منافي الغرناطيين بعد سقوط مملكتهم، كان يوم المباراة ملازما لخياله، فانزوى لإعادة رسم اللوحتين، مستولداً دقائق مشاهدهما من ذاكرته وإبداعات خياله، أنجز أولاً لوحة بن عزيز، لكنّه اشتغل وجها آخر للجارية، وجها ضمنه أمارات الجمال الأندلسي، الملائم بين عذوبة اللون العربي وحنطيته الآسرة وبين بياض العنصر الأوربي وشقرته الجاذبة، سعى يحيى لعجن ملامح الأندلس وإيبريا

والإفــرنج معــا، ثــم غــدت الجاريــة عنــد يحيــى ثــلاث فتيــات أندلســيات يرتــدين أزيــاء الأنــدلس الزاهيــة بأصــباغها وتغطــي رؤوســهن باقــات، بــثلاث أو أربــع وردات نضرــات، رســم إحــداهن تحمــل باقــة أزهــار كبــيرة، كــن يمشــين معــا ويتضــاحكن وهــن يخــترقن الحــائط خارجــات بمشــيتهن البريئــة المرحــة، كــأنهن كــن يعــبرن غلالــة مــن البخــور الهنــدي أو ســتارة شفافة من الهواء الملون وهن يخرجن..

ثــم أكمــل بعــدها لوحــة الرســام قاســم، وجعــل البنــات الأندلســيات يــدخلن تجــاه النــاظر مــن خــلال الحــائط نفســه وبالهيئــة الأولى ذاتهــا، إلا أنَّ وجــوههن كلهــا بانــت للمشــاهد ومنهــا شــعت ملامــح الجــمال الأندلسيــ الأخــاذ، كانــت أعمارهــن لا تتجــاوز الثانيــة عشرــة وكــن مغطيــات الشــعر بشــالات مــن الحريــر الغرنــاطي الملــون والمشــبع بالخضرــة الخفيفــة الرائقــة والاصــفرار البهيج، مما أضفى على حركاتهن مسحة من الطفولة الفرحة والسعادة..

ومــا إن انتهــى مــن اللــوحتين حتــى بــرق ذهنــه الوقــاد عــن فكــرة مبدعــة أذهــل الأندلسيين التطوانيين بها..

وضــع الفنــان الأندلسيــ يحيــى المجريطــي اللــوحتين معــا ظهــرا لظهــر واحكــم شــدهما معــا بحيــث بــدت لوحــة بــوجهين، كالعملــة (طــرة وكتبــة) الأول للأندلســيات وهــن يخــرجن والثــاني لهــن أيضــا وهــن يــدخلن ويــواجهن النــاظر بوجــوههن، ثــم ربــط اللــوحتين معــا مــن الأعــلى بحبــل مــن حبــال الأشرعــة القويــة المرنــة وصــبغه حلزونيــا بــألوان متناســقة مــن الأزرق إلى

البنفسجي فالاحمر فالبرتقالي ثم الأصفر فالأخضر فالأزرق وهكذا، لتبدو حركة الحبل لوحدها وهو يعود إلى وضعه الطبيعي بعد برمه بشدة، حركة ألوان تطارد بعضها وتتمازج معها، لكن هذا وإنْ نال إعجابهم لطرافته وجدته، لكنه لم يثر الأندلسيين كما إثارتهم وهم الذواقون للفن ولم يزل عهدهم بالأندلس قريبا وحنينهم إليها يملأ قلوبهم وحياتهم كلها، حركات الخروج و الدخول الوادعة المتتالية بتريث ومهل للبنات الصغيرات، يرون البنات يخرجن كأنهن يومئن لهم بالوداع ثم يطللن عائدات مع الدوران الهادئ للوحة، وهن باسمات ولاهيات، فترتفع صيحات الإعجاب والثناء للرسام الأندلسي المبدع كأنما كانوا في ذاك الزمان البعيد يشاهدون فيلما سينمائيا متحركا..

قريـة السمّـاكيـن

عند الطرف الجنوبي للمرية، على الساحل تماما تنتشر بيوت لصيادين مواركة، يقال إن بعضهم يتحدر من عائلة بني حمود الأدارسة، وكانوا كما هو حال أهل الأندلس الموريسكيين يكتمون إسلامهم ويعلّمونه، بل يرضعونه لأولادهم سرّا، يمنحهم بعد قريتهم عن المرية واعين الرقباء حرية أوفر في إقامة شعائرهم الإسلامية، وهكذا اعتادوا أول كل شهر قمري خاصة مع إطلالة رمضان ووداعه وشهري الحج ومحرم أنْ يتطلعوا جهة الغرب لرؤية الهلال، كي يبدأوا صومهم أو يحتفلوا بالعيدين الفطر والأضحى أو يباشروا شعائر الحزن على مأساة عاشوراء، ولم يحدث من قبل أن اكتشف القشتاليون أفعالهم، إلا في اليوم الذي ترسمه الجملة السردية، فقد حسبوا أيامهم بدقة، وكان هلال رمضان متوقعا الليلة أو ليلة غد، فخرج جماعة منهم إلى أعلى تل قريب من قريتهم، كانوا أكثر من عشرين رجلا مع أولادهم، لكن جنود الملك أدركوا الذين ذكرتهم القصاصة فقط، وأذاقوهم عذابات بشعة، فقد مات بعضهم قبل إحراقه، عرف أهالي القرية أنَّ الحمدي وكان في الستين من عمره زفوه مرتين إلى تابوت العذراء الجميلة نكاية به، ففي أرضية التابوت اللعين صورة حسناء شبه عارية بثوب الزفاف وهي تمد ذراعيها كأنها تريد احتضانك، فأدخلوا الحمدي عليها وطرحوه في التابوت على وجهه كي يحتضن عذراءهم اللعينة، لكنهم لم يطبقوا التابوت عليه جيدا لكي لا يتمزق جسده كليا بسكاكين

التابوت، إمعانا في تعذيبه، أخرجوه داميا يئن ثم أدخلوه ثانية حتى تمزق رحمه الله ومع أنّه كان ميتا إلا أنهم رموا بجثته في النار مع الآخرين، قيل إنهم عذبوه هكذا لمعاندته لهم وإصراره على ترديد الشهادة إلى آخر لحظة، وكانت إحدى الطفلتين ميتة أيضا، أقاموا الاحتفال في الميدان العام في المرية وساقوا قرية الصيادين كلها لتحضر الاحتفال، عرضوا الأحياء أولا ثم قرأوا لائحة الاتهام، اتهموهم بأنّهم كانوا على التلة ينتظرون مجيء قوارب القراصنة الأتراك (طبعا كانت وجوههم إلى الغرب كي يروا الهلال، أي تجاه غرناطة تقريبا وليس إلى البحر كما ذكر الراهب وهو يقرأ الاتهام). كما اتهموهم بأنهم يمارسون الشعوذة والتنجيم بتطلعهم للنجوم، ثم جرجروهم وكانوا مقيدين، وقد شوهت الكدمات وجوههم، كووا جباهم واحدا بعد الآخر بحديدة متجمرة، ووشموا عليها علامة الصليب، وكانت صيحات الاستحسان الهستيرية تدوي، كان منظر الصغار مفزعا يفطر القلب، وقد أكد أهل القرية أنَّ العديد من المسيحيين الحاضرين بكوا، وكانوا يمسحون دموعهم لئلا يراهم أحد، صرخت أم الصبيين أحمد وجعفر حين باشروا كيَّ ولدها جعفر، صرخت من أعماق قلبها وسقطت، فهب الجنود إليها وسحلوها، لكن القس منع إلقاءها بالنار، قائلا يجب عرضها على الديوان المقدس أولاً وأخذت ولم يعرف بخبرها بعد ذاك أحد، بعدها بدا الاحتفال المقدس، رموا جثة الحمدي أولاً ثم الصبية

الميتــة ثــم الآخــرين واحــدا بعــد الآخــر ولم يصــدر عــنهم أي صراخ أو صــوت فقد كانت أفواههم مكممة ومحشوة بالقماش..

تلــك الأيــام مــن شــهر رمضــان كــان أهــل المريــة وخاصــة قريــة الســماكين تتراءى لهم أشباح الأطفال كالملائكة وكان فطورهم يمتزج بالدموع.

صــديقي العزيــز، كنــت أخبرتــك في رســالة ســابقة أنّ هنــاك إضــافة مــن الهولنــديين، كورنيلــوس وزوجتــه فيرونيكــا، بصــدق نســيتها، لكــن الآن وأنــا أراجــع رســائلي إليــك قرأتهــا، إليــك الآن تلــك المشــاركة الهولنديــة وهــي مهمــة لســد ثغــرة في سرادياتنــا وســتربط بــين حكــايتين لخيمتــي غرناطــة وإشبيلية..

يقـــول الهولنـــديان، أنهـــا اطلعـــا في أوراق بيـــتر باســـتن المحفوظـــة ضـــمن أرشـــيف شركـــة الهنـــد الشرـــقية الهولنديـــة عـــلى مـــا جـــرى بـــين مـــاركوس الغرنـــاطي وبيـــتر باســـتن في الليلـــة التـــي قـــررا فيهـــا الهـــرب مـــع لارنكـــا البروتستانتية وابنتيها..

كتـــب باســـتن: اخـــتلى مـــاركوس بنفســـه، لم يبـــق عـــلى خروجنـــا ســـوى ســـاعات، كـــان مخططنـــا أنْ نخـــرج جميعـــا مـــاركوس وعائلتـــه ولارنكـــا وابنتاهـــا، وأنـــا معهـــم ببضـــائعي وأوراق ســـفري الإيطاليـــة كـــي أوفـــر غطـــاء لهـــم إذا اعترضـــنا الجنـــود، وســـيتولى مـــاركوس إذا وصـــلوا أرض المغاربـــة ترتيـــب نقـــل لارنكـــا وابنتيهـــا عـــلى ظهـــر ســـفينة إلى هولنـــدا، حيـــث زودتهـــا برســـالة إلى أمـــير أورانـــج، أمـــا أنـــا فســـأعود ببضـــاعتي بمجـــرد إبحـــارهم، كنـــت قلقـــا، ســـألت ميشـــيل أو محمـــداً عـــن أبيـــه، قـــال لي يصـــلي، وســـمعته يرتـــل بصـــوت حـــزين، يتقطـــع ببكائـــه وتضرـــعاته، كـــان يقـــرأ القـــرآن ويصـــلي، انتظرته بصبر صعب، ثم جلس إلى جواري وقال:

-اســـمع أخـــي باســـتن، سأكشـــف لـــك سرّا لا يعرفـــه في غرناطـــة أحـــد ســـوى زوجتـــي فاطمـــة، مـــا أرجـــوه أن تكـــتم السرـــ حتـــى نصـــل إلى العـــدوة المغربيـــة، بعـــدها، ســـكت قلـــيلا ثـــم أردف، أحتـــاج مســـاعدتك، أعـــرف أني ســـأتعبك لكني مضطر لذلك.

-لا عليــك أخــي مــاركوس، لا عليــك، قــل مــا تريــده وســأبذل جهــدي لمساعدتك.

أولاً، ســأروي لــك قصــتي: أنــا مــن إشــبيلية، اســمي الأندلسيــ بــدر، وفي الكنيســة عمــدوني باســم بيــدرو، ولجــأت إلى غرناطــة هاربــا مــن بطشــهم لقــد اعتقلــوا أبي أمــامي لكــنهم لم يــروني، كنــت في حجــرة مجــاورة فــأعماهم الله، ســحلوا أبي إلى خــارج الــدار، وأخــذوه إلى محكمــة التفتــيش، كــان لا يحــب الاخــتلاط بالنــاس ولم يفعــل شــيئا، لا أدري لمــاذا اعتقلــوه، يقــال إنّــه اعتقــل بســبب صــديق لــه اســمه عــلي الخــير، عرفتــه فــيما بعــد وعشــت معــه زمنــا، مــا زال حيــا مرابطــا في الجبــال، وهــو مــن نســل الســادة الأدارســة، أحفــاد النبــي الأمــين، وبعــد ســاعة مــن أخــذ أبي عــادوا للبحــث عنــي، طلبــوني بالاســم ولطمــوا زوجتــي قمــرين عــلى وجههــا، كسرــوا فكهــا، فــأغمي عليهــا، كنــت قــد خرجــت واختبــأت عنــد صــديق نصرــاني، لا أدري إنْ كــان موجــودا الآن أم لا، اســمه الــونزو، كبرنــا معــا مــذ كنــا صــغارا، وكنــا لا نفــترق، لكــن أهلــه أبعــدوه عنــي بطلــب مــن القــس، كــي لا تتــنجس روحــه بســببي كــما قــال لهــم، ومــع هــذا، كــان يخــتلس الفــرص للقــائي، عنــدنا حمَــام، ورثتــه زوجتــي مــن أبيهــا، وهــو بمنزلــة عمــي، لعلــك ســمعت بــه، هــو المــلاح المعــروف باســم خــوان رودريغــو، أوّل مــن رأى أرض العــالم الجديــد، كــان مــع كــولمبس في تلك الرحلة البحرية الشهيرة، هل سمعت به؟

-أجل سمعت عن رحلة كولمبس.

-كنـا كلـما جـاء الـونزو نصـعد إلى سـطح الحـمّام، وكنـا نجلـس لسـاعة أو أكثـر قـرب قـن الطيـور ثـم يعـود إلى أهلـه، واسـتمرت علاقتنـا إلى أنْ تـزوج كـل منـا، وحـين أخـذوا أبي، كانـت علاقتـي بـالونزو شـبه منقطعـة، ولم أكـن قـد التقيتـه منـذ شـهور، لكنـي مـع هـذا، قصـدته، لم أجـد مكانـا آخـر أذهـب إليـه، الكـل يخـاف انتقـام الكنيسـة إذا وجـدوني عنـده، كـما أنهـم سـيبحثون عنـي في بيـوت الموريسـكيين، لـذا ذهبـت إليـه، قبـل أنْ أدخـل داره أخبرتـه بكـل شيء، فـأدخلني مـن البـاب الخلفيـة لـداره وأخفـاني عـن زوجتـه، بقيـت عنـده سـاعات، أعطـاني ثـلاث دوقيـات ذهبيـة ورسـالة إلى صـديق لـه في فالنسـيا، شـكرته وأعـدت النقـود إليـه، كـان معـي مـا يكفـي، فقـط أخـذت الرسـالة، رافقنـي الـونزو حتـى خـارج إشـبيلية، ثـم عـانقني طـويلا وافترقنـا، فقصـدت قرطبـة أولاً، بقيـت يومـا عنـد أحـد معـارفي مـن الموريسـكيين، لم أخـبره بقصـتي، ومـع الفجـر غـادرت في رحلـة طويلـة إلى فالنسـيا، هنـاك أوصـلت الرسـالة إلى صـديق الـونزو وكـان صـانع قـوارب مـن كاتلونيـا اسـتقر بـه المقـام في فالنسـيا، بقيـت عنـده إلى أنْ اشـتريت داراً وبسـتان تـوت بما حملته معي من مال...

-حاولـت أنْ أمثّـل دور المـواطن الكـاثوليكي الصـالح كـما يقولـون وتعرفـت إلى فتـاة شـقراء مـن بقايـا المجـوس الفـايكنغ، لكنـي لم أسـتطع معاشرتهـا كـما تريـد، وطـاردتني أيـنما ذهبـت، حاولـت الـتخلص منهـا بشـتى الطـرق، لكنهـا غـير قـادرة عـلى الابتعـاد عنـي كـما قالـت، كـان زوجهـا ضـابطا أو بحـارا وقـد ذهـب في رحلـة بعيـدة، وأنـا لا أسـتطيع الارتبـاط بهـا،

نفسيــ أبــت ذلــك، أنــا مســلم يــا أخــي ولا أســتطيع أنْ أعــاشر امــرأة متزوجــة، ولم يكـــن مســـموحا لهـــا بـــالطلاق، لـــذا أخفيـــت وجهـــي عنهـــا مســـتعينا بالكـــاتلوني الـــذي حـــاول إبعادهـــا عنـــي، فـــذكر لهـــا أني موريســـكي كـــي تتركنـــي، المســـكين أراد أنْ ينفعنـــي فـــألحق بي الضرـــر، هـــددتني بفضـــح أصـــلي الموريســـكي إنْ لم أذهـــب معهـــا إلى البيـــت، حاولـــت إرغـــام نفسيـــ عـــلى ذلـــك، مـــا أفعـــل؟ لكنـــي لم أطـــق رائحتهـــا المقرفـــة، وتركتهـــا، كنـــت أتوقـــع أن تشيـــ بي، وقــد لاحظــت اشــمئزازي منهــا، جمعــت مــا أملــك مــن مــال وهــو لــيس قلـــيلا، حصـــلت عليـــه مـــن تجـــارة الحريـــر، كنـــت أنـــتج في منســـجتي أجـــود أنــواع الحريــر في فالنســيا وكــان التجــار يشــترونه منــي بــأيّ ثمــن، حتــى ذاعــت شــهرته وســمي بحريــر مــارتينو وهــو الاســم الــذي حملتــه في فالنســيا، الكــل يعـــرف أني قشـــتالي عـــدا الكـــاتلوني صـــانع القـــوارب الـــذي أخـــبر ســـاندرا، كنـــت متواريـــا في المينـــاء بذريعـــة المشـــاغل عنـــدما أخـــبرني الكـــاتلوني بـــأنَّ رجــال محكمــة التفتــيش يبحثــون عنــي، وهكــذا هربــت إلى مكــان مــا ثــم إلى غرناطــة، لأتنكــر باســم مــاركوس، وأعــود مجــددا تــاجرا بارعــا للحريــر، هــذا ملخـــص قصـــتي، أغلـــب أفـــراد عـــائلتي قتلـــوهم، بـــالحرق أو التعـــذيب، ومـــا أرجـــوه منـــك يـــا أخـــي أنْ تســـاعدني بإنقـــاذ زوجتـــي قمـــرين وأولادي، حامـــد وعـــمار وكنـــاري، وبكـــى، لم أرهـــم منـــذ ســـنوات، وأجهـــش يبكـــي، أبكـــاني معـــه مـــاركوس ووعدتـــه بالـــذهاب إلى إشـــبيلية وأخـــذت منـــه رســـالة تعريـــف إلى زوجته قمرين.

مع استغراقنا بقراءة المدريديين الأربعة ومشاركة الهولنديين، وزعت خيمة قرطاجنة حكاية جديدة تملأ فراغاً آخر في متوالية حكايات قمرين كما بدأ المشاركون في المخيم يسمون كل الحكايات لأنها بشكل وبآخر تدور في فلك حكاية قمرين . يقولون في خيمة قرطاجنة أنهم استقوا حكايتهم (علي الخير) مما كتبه شرطي قشتالي خدم في قرطاجنة وحفظت يومياته في مكتبة المدينة، بالإضافة إلى مصادر أخرى من الإسكوريال ومكتبة تطوان وغيرها.

الكـونـدي دي لـيريـا

الكونـدي دي ليريـا الفـارس العظـيم لكنيسـتنا الكاثوليكيـة المقدسـة، كـان معاونـا للمقـدس الكاردينـال ثيسـنيروس، وكـل رجـال كنيسـتنا عظـام ومقدسـون، لكـن الكونـدي دي ليريـا كـان ملتزمـا بـآداب الفروسـية القشـتالية المقدسـة، وفروسـيتنا يـا سـادة مقدسـة أيضـا، كـل مـا عنـدنا مقـدس طبعـا، وكـان دي ليريـا شـجاعا جـدا، جـدا، جـدا، حتـى إنّـه عنـدما كـان يقـود خمسـين مـن خـيرة فرسـاننا المقدسـين، نعـم سـادتي فرسـاننا مقدسـون، وقائـدهم الشـجاع جـدا جـدا مقـدس أكثـر مـنهم، ولأنـه كـذلك، وحفاظـا مـن حضرـته المقدسـة عـلى قداسـة نفسـه، لم يعـرض نفسـه لخطـر الاشـتباك مـع المرتـدين عـن ديننـا المقـدس مـن المورسـكيين، الـذين خـانوا قشـتالة المقدسـة، وتـآمروا عليهـا مـع المغاربـة الكفـرة، اعـذروني سـادتي مـن كثـرة تكـراري لكلـمات القداسـة، هكـذا ينبغـي تبجيـل ديننـا ورجالنـا أمـام أولئـك الهراطقـة والمشـعوذين، أقـول سـادتي إن الكونـدي دي ليريـا، لأنـه مقـدس، أدار جواده وعاد خببا إلى غرناطة، بل إنّه لاهتمامه بقداسته لم

يلتفـت خلفـه أبـدا، وتـرك رجالـه يقـاتلون المرتـدين، وبهـذا فقـد قـدم لتاريخنـا المقـدس خدمـة كـبرى لبقائـه حيـا، بيـنما قتـل الهراطقـة أكثـر رجالنـا وأسروا عـددا آخـر مـنهم ولم يـنجُ إلا القليـل، وإن فاتـه كـما رأى الكاردينـال ثيسنيروس المقدس، فاته أن يتبرك بذبح الموريسكيين مثل النعاج..

ولأنَّ الكونـــدي دي ليريـــا، لا أحــــد أكثـــر منـــه إخلاصـــا للكاردينـــال ثيســـنيروس، فقــد تلقــف الوصــية جيــدا وانطبــع كــلام الكاردينـــال بعقلــه وحفظــه كــما يحفــظ أوقــات طعامــه، ولهــذا أسرع حــين علــم بــان العشرــات مــن الموريســكيين ممــن لا يســتطيعون القتــال قــد لجــأوا بعــد هــدم دورهــم إلى مســجد قريـــب، أسرع المقـــدس دي ليريـــا، وهـــو يحفـــظ كلـــمات المقـــدس ثيســـنيروس ومعـــه عـــدد أكثـــر مـــن الســـابق مـــن الفرســـان، المقدســـين أيضـــا، وإن كـــانوا مقدســـين بدرجـــة أقـــلّ مـــن دي ليريـــا، كـــما أنَّ الكونـــدي دي ليريـــا أقـــل قداســـة مـــن الكاردينـــال ثيســـنيروس، مـــاذا أقـــول ســـادتي، كـــان دي ليريـــا في مقدمـــة فرســـانه، وهكـــذا هـــم الشـــجعان، هكـــذا هـــي الفروســـية القشـــتالية، كـــان في المقدمـــة، هـــذه المـــرة لم يتـــأخر، وإنّـــما كـــان يسرـــع أكثـــر مـــن الآخـــرين، ومـــا إنْ وصـــل، حتـــى أمـــر رجالـــه باقتحـــام مســـجد الكفـــرة، وحـــين عـــادوا إليـــه، عـــاد رجالـــه وقـــالوا لـــه إنَّ مـــن في المســـجد ليســـوا مســـلحين ويتبـــاكون، فـــماذا نفعـــل بهـــم؟ نهـــر مـــن ســـأله وهجـــم وهـــو شـــاهر ســـيفه وخلفـــه جنـــوده الشـــجعان جـــدا وذبحـــوا الجميـــع، كـــل كبـــار الســـن ذبحـــوهم، كـــل الرجـــال حتـــى الصـــبيان، وانفـــردوا بالنســـاء ســـاعات، ارتـــاحوا لســـاعات، ومعهـــم المقـــدس دي ليريـــا طبعـــا، كـــن نســـاء المرتـــدين، هـــن مرتـــدات أيضـــا، ثـــم بـــاعوهم كلهـــم، الأطفـــال والنســـاء، كلهـــم، لكـــن كـــل واحـــد إلى جهـــة، كانت أثمانهم رخيصة، وهدموا المسجد على جثث القتلى..

عنـــدها اســـتعاد دي ليريـــا المقـــدس حظوتـــه عنـــد المقـــدس أكثـــر منـــه، الكاردينـــال ثيســـنيروس، وعـــادت الأمـــور كـــما كانـــت صـــحيحة تمامـــا، هكـــذا فروسيتنا المقدسة وفرساننا المقدسون.

أثـــارت قصـــة الفروســـية هـــذه بطرافتهـــا وانتقاداتهـــا الخفيـــة ردود أفعـــال متباينـــة، فقـــد عـــدها بعـــض الأدبـــاء إســـاءة للتـــاريخ القشـــتالي المجيـــد، وكـــاد هـــؤلاء أنْ يرســـلوا بحامـــد إلى الســـجن، بـــل طالـــب أحـــدهم بتقديمـــه لمحكمـــة التفتـــيش، ملمحـــا إلى أنَّ الموريســـكيين لا يمكـــن أنْ يكونـــوا مخلصـــين لقشـــتالة، لكـــن عـــددا مهـــما مـــن الأدبـــاء ومحبـــي قصـــص الفروســـية عارضـــوهم ووجـــدوا فيهـــا تجديـــدا في الأســـلوب القصصيـــ الســـائد، وكـــان لهـــؤلاء الغلبـــة في النهايـــة، إذ أقنعـــوا الحـــاضرين بجـــمال القصـــة وأكـــدوا عـــلى احترامهـــا لكـــل مـــا هـــو مقـــدس بتكرارهـــا الرائـــع لكلـــمات القداســـة، أحـــد الأدبـــاء الإســـبان مـــع أنـــه كـــان كثـــير الإعجـــاب بالأســـلوب القصصيـــ الجديـــد الـــذي ابتدعـــه حامـــد، لكنـــه لم يـــرتح لمضـــامين قصصـــه التـــي تزخـــر بـــالتهكم عـــلى فرســـان الكنيســـة المقدســـة وأبطـــال المســـيحية وكـــان هـــذا الأديـــب المفلـــس عـــادة يحمـــل لقبـــا مماثلا للقـــب عائلـــة حامـــد (رودريغـــو) وتعـــرض للإصـــابة عـــلى يـــد المغاربـــة وأسر عنـــدهم لعـــدة ســـنوات، هـــذه الأســـباب جعلتـــه يكـــره حامـــدا وفي نفـــس الوقـــت كـــان متـــأثرا بأســـلوبه القصصيـــ، وقـــد لاحـــظ المهتمـــون بـــالأدب تـــأثره بأســـلوب حامـــد في كتابـــة القصـــص وتقليـــده لـــه، وأصـــبح تـــأثره محـــل انتقـــاد الأدبـــاء وتهكمهـــم ممـــا أوغـــر صـــدره عـــلى حامـــد وازداد بغضـــا لـــه، لقـــد غـــدا ظـــل حامـــد يلاحقـــه ويزعجـــه، فحتـــى لـــو بـــذل كـــل

طاقتـه في كتابـة قصـة جديـدة، فـإن حكـم زملائـه مقـدمٌ، إنهـا تقليـد لقصـص حامـد أو مسرـوقة منـه، وصـار يشـعر بعقـدة الاضـطهاد (البارانويـا) مـن كـل مـا يـذكّره بحامـد، وبـات يتحـين الفـرص للانتقـام منـه خاصـة بعـد أنْ علـم أنَّ حامـداً أو خـوان موريسـكوس متنصرـ، وأنّـه يحمـل لقبـا ممـاثلا للقبـه فاستشـاط غضـبا وأصرّ عـلى تطبيـق القـانون القشـتالي بحـق هـذا الموريسـكي المنتحـل لأسـماء سـادته القشـتاليين، وكـان القـانون القشـتالي يحـرم عـلى النصـارى الجـدد (الموريسـكيين (انتحـال اسـم لنصرـاني قـديم، وإذا حـررت وثيقـة بأسـماء متشـابهة بـين نصرـاني قـديم ونصرـاني جديـد وأخفـى النصرـاني الجديـد ذلـك ولم يخـبر محـرر الوثـائق ، فعـلى السـلطة أنْ تغـرم النصرـاني الجديـد مبلغـا كبـيرا يـدفع للنصرـاني القـديم، ويـتم إصـلاح الخطأ..

وهكـذا قـام بجرجـرة حامـد للمحـاكم، ممنيـا نفسـه بغرامـة تغسـل فقـره، وأصر (رودريغـو) عـلى ذلـك رغـم تـدخل صـديقهما المشـترك الأديـب جـون بيرز..

))جـون بـيرز هـو أديـب مـن أصـل موريسـكي، طـرد فـيها بعـد عـام 1609 إلى تـونس وهنـاك عـرف باسـم إبـراهيم الطبـيلي، نسـبة إلى نهـر طبيلـة أحـد فـروع نهـر شـقورة في مدينـة مرثيـة، وتقـول بعـض المصـادر التـي اطلعنـا عليهـا في مكتبـة خاصـة تعـود لأحـد أسـاتذة جامعـة القـيروان: إنّ إبـراهيم الطبـيلي أو جـون بـيرز هـو نفسـه الإشـبيلي لـويس بـن سـالم وقـد هـرب مـع

صـــديقه حامـــد إلى بلـــد الوليـــد وهنـــاك تنكـــر لـــويس باســـم جـــون بـــيرز، بيـــنما بقـــي حامـــد محتفظـــا باســـمه، ولم يـــذكر المصـــدر وهـــو رســـالة أو مـــا يشـــبه مجلـــة قديمـــة بـــلا غـــلاف، ســـبب اختيـــاره لاســـمه الأخـــير إبـــراهيم ولمـــاذا لم يعـــد إلى اســـمه الســـابق لـــويس بـــن ســـالم بعـــد إخراجـــه مـــن الأنـــدلس عـــام ((1609 إضافة لموريسكي من تونس.

لكـــن القـــاضي حكـــم لصـــالح حامـــد، لأنَّ الاســـم كـــما ذكـــر في قـــرار الحكـــم يتعلـــق بمـــلاح إشـــبيلية وقشـــتالة العظـــيم خـــوان رودريغـــو، والمثبـــت في الســـجلات الملكيـــة ممـــا لا يمكـــن محـــوه أو الاعـــتراض عليـــه، وهـــو عـــلى كـــل حال - كما قرر القاضي – أنّ الاسم مسجل قبل أنْ يولد المشتكي..

((تقول خيمة العدوة المغربية، في إضافة قيمة:

نقـــلا عـــن إبـــراهيم الطبـــيلي، أو جـــون بـــيرز أو لـــويس بـــن ســـالم: إن حامـــداً لصـــداقته الوثيقـــة بـــه أطلعـــه، عـــلى مـــا يكتبـــه مـــن قصـــص، قبـــل أن يرســـلها إلى شـــقيقه عـــمار المســـمى بالقشـــتالية أمّـــارو، وهـــو يعمـــل بالتجـــارة بـــين بلـــد الوليـــد وقلعة هنارس..

((كتب ضيف إسباني هذا الهامش:

هنـــارس هـــي المدينـــة التـــي يقـــول سرفـــانتس - مؤلـــف دون كيخوتـــه - أنـــه ولـــد فيهـــا ويفـــاخر دائـــما بمكتبتهـــا التـــي أنشـــأها الكاردينـــال زمينـــز المشـــهور بإبادته للموريسكيين عبر محاكم التفتيش وغيرها.))

وكـــان حامـــد قلقـــا دائـــما مـــن ضـــياع قصصـــه، ويضـــايقه كثـــيرا أنّـــه لم يكـــن يســـتطيع نشرـــ أكثرهـــا لكـــي لا تســـبب لـــه مشـــاكل كـــما حـــدث مـــع قصـــته (الكونـــدي دي ليريـــا) لـــذلك كـــان يرســـل نســـخة مـــن كـــل قصـــة ينجزهـــا إلى أخيـــه ويوصـــيه بنشرـــها إذا ســـمحت الظـــروف بـــذلك، وقـــد أنجـــز في أيامـــه الأخـــيرة قصـــة جميلـــة مضـــحكة مـــن قصـــص الفروســـية، وهـــي أطـــول قصصـــه، تتجـــاوز المائـــة صـــفحة، وكنـــت لا أمـــلّ مـــن الضـــحك عنـــد قراءتهـــا – يقـــول الطبـــيلي – لكنـــي نصـــحته بعـــدم نشرـــها، لأنهـــا وإن كانـــت في الظـــاهر تنتقـــد الفروســـية وفرســـانها بســـخرية واســـتهزاء، إلا أنّهـــا بشـــكل خفـــي لا يغيـــب عـــن القـــارئ الـــذكي تنتقـــد مـــا تدعيـــه حكومـــة قشـــتالة مـــن بطـــولات الفروســـية وملاحمهـــا ضـــد الموريســـكيين العـــزل مـــن القـــوة والســـلاح، ووصـــف حامـــد في قصـــته مـــن يســـير وراء حكومـــة كهـــذه بالتـــابع الغبـــي أو الحـــمار، ورســـم مشاهد سردية غاية في التندر وإثارة السخرية من قشتالة وفرسانها..

لم يعـــرف إلى الآن مصـــير قصـــة الفروســـية تلـــك، لكـــن مصـــير حامـــد مؤلفهـــا، معـــروف للإشـــبيليين وســـكان بلـــد الوليـــد، إذ اقتـــاده رجـــال محكمـــة التفتـــيش ظهـــر يـــوم جمعـــة، فقـــد فاجـــأوه يغتســـل ويفـــرش ســـجادته للصـــلاة، خرجـــوا بـــه مـــن داره، وخلفهـــم كـــان أديـــب إســـباني يتمشـــى بانتشـــاء، ويثـــير الاستغراب لوجوده معهم..))

أرجـــو أنْ لا تكـــون قـــد تعبـــت، عـــلى خـــلاف عـــادتي، سأضـــطر اليـــوم للاســـتمرار معـــك، قـــد يلفـــت انتباهـــك صـــديقي، أنَّ خيمـــة بلـــد الوليـــد، هـــي

التي أعدّت حكاية حامد وقصصه عن الفروسية وليس إشبيلية، هذا لأنّ بلد الوليد هي مسرح الأحداث بعد هروب حامد ولويس بن سالم، ولأن خيمة بلد الوليد جمعت مصادر الخبر ذي القيمة التاريخية بجهد خاص بها من صاحب مكتبة شخصية في مدينتهم ومن مكتبة قلعة هنارس واستطاعوا اختراق نظام التشفير الإلكتروني في أكاديمية التاريخ في مدريد للوصول إلى مصادر لا يسمح بالاطلاع عليها، ولكن، كل سر معرض للاستباحة في عالم اليوم، كما أنّ إضافة خيمة العدوة المغربية كانت لافتة للنظر أيضا لأهميتها الخاصة..

طبعا ما نشرته بلد الوليد سيثير إشكالات وليس إشكالا واحدا، فمن لديه - من الأمم أو الأفراد - الاستعداد للتنازل عما سجل تأريخيا باسمه من الآثار الأدبية العظيمة، إلا أننا، لا نتوقف طويلا هنا، للقارئ أن يعيد قراءاته ثم يقرر، ونعود إلى خيمة العدوة المغربية وما لملمته من أخبار عن بيدرو أو ماركوس أو مارتينو على اختلاف أسمائه القشتالية ونعني بدر بن حامد وزوج قمرين الذي أبحر إلى العدوة المغربية، مستندة في ذلك إلى مراجع عديدة، منها رحلة الشهاب أفوقاي الموريسكي إلى هولندا وغيرها، عرضت الخيمة وفرة من الأخبار والتفاصيل الدقيقة، إلا أننا كإدارة للمخيم، أصررنا على ضرورة التركيز والاختصار، فقد أوشكت إجازة المخيم على الأرض الإسبانية بالانتهاء وعلينا لم حكاياتنا بأسرع ما يتاح لنا، من جهتي السرد والواقع

المعـــيش معـــا، والعـــودة إلى عوائلنـــا، في إســـبانيا وخارجهـــا، فقـــد غبنـــا عـــنهم طويلا، وهكذا كان ..

بعد عام تقريبا من بلوغهم العدوة مع بدر بن حامد وعائلته، رتب حامد لنيكولا وابنتيها السفر بحرا إلى البرتغال كما اتفق مع الهولندي باستن، لكن نيكولا التي التقت ب بيترباستن إثر وصوله لشبونة أيضا ومعه قمرين وابنها عمار، اعتذرت عن السفر معهم إلى لاهاي وفقا لخطتهم التي اتفقوا عليها عند الهرب من غرناطة، فقد تعرفت على بحار برتغالي وستتزوجه قريبا ليرحلوا بعدها إلى البرازيل، وكانت سعيدة بما تقوله وهي تحتضن ابنتيها بحنان..

احتفت حكومة هولندا بمواطنها بيتر باستن لدوره في المخاطرة بحياته وإنقاذ أرواح العديد من المسيحيين في إسبانيا من اضطهاد محاكم التفتيش التي عانى منها أيضا شعب هولندا خلال الاحتلال الإسباني وذاق المرارة تلو المرارة كما يقول نص قرار التكريم، لكنه لم يبق في لاهاي طويلا فقد استغلت حكومته اهتماماته العربية ووجود قمرين وابنها معه، لتبعثه إلى العمل في مكاتب شركة الهند الشرقية الهولندية خارج هولندا..

بعد ثلاثة أعوام من العمل في إندونيسيا، وكان عمار قد أصبح المساعد الأهم لبيتر، انتقلوا إلى الخليج العربي أو خليج البصرة كما تسميه الخرائط الهولندية، وأثناء إبحارهم في الخليج تعرضوا لهجوم من سفن صغيرة سريعة الحركة، تسميهم المصادر الهولندية بالقراصنة العرب،

ويظن أنّهم من القواسم لقرب الهجوم من سواحلهم وقيل إنّهم من الخواري عرب جزيرة خرج، وقد قتل بيتر باستن خلال المعارك، فيما استطاعت سفينة حربية هولندية إنقاذ عمار وأمه قمرين ونقلهما إلى البصرة، ونقلا عن أرشيف الشركة فإنَّ عمار، أو أمارو، سكن منطقة العشار في البصرة مع أمّه وتزوج من فتاة بصراوية، وقد تنقل في عمله بين مكان قريب من ميناء المعقل حاليا، أعلى شط العرب، وبين الفاو أقصى الجنوب العراقي، حيث أنشأت الشركة الهولندية هناك فنارا لرصد السفن أو إرشادها، وانتهت أخباره هناك إذ طاب له أهل البصرة وأحبّ عشرتهم فبقي فيها وصار كأحدهم بعد انتهاء أعمال شركة الهند الشرقية الهولندية في البصرة.

***

عادت خيمة غرناطة إلى الظهور القوي بحكاية فاجعة، وهي بتعبير أدق، إخبار عن المرسى الأخير لحياة مبدع دمية المايوركا، كريم كاسياس، أو زكي الحطاب الغرناطي الشجاع..

صيـد الرؤوس 1

حفـل زواج كـريم وكنـاري أواخـر عـام 1567، كـان بسـيطا، ولـو شـهدته قمـرين لتقطعـت ألما، كانـت تحلـم بزفـاف بهـيج لابنتهـا في إشـبيلية، ولكـن لا مقارنـة عنـد قمـرين بنـت الأشراف وصـاحبة القـرآن، لا مقارنـة عنـدها بـين الفونسـو اللعـين ونظراتـه الوقحـة لابنتهـا وبـين كـريم الحطـاب الفقـير والمطـارد، لا لشيـء، سـوى أنّـه مسـلم أندلسيـ حـر، لا يقبـل الذلـة ولا الهـوان، لـذا أوصـت حامـداً أنْ يخـرج بأختـه إلى جبـل البشرـات ويزوجهـا مـن كـريم، وربـما كانـت هـذه - وفقـا لـبعض المصـادر- وصـية بـدر والـد كناري نفسه..

مـع زواجهـما وبعـده بأشـهر، انـدلعت أقـوى وأوسـع وآخـر ثـورات الأندلسـيين، وكـان كـريم في المقدمـة كعادتـه، وكـان أسـتاذه وقائـده، عـلي الخـير الأندلسيـ، قـدوة لهـم - عـلى كـبر سـنه - في الأخـلاق والشـجاعة والقتال..

قـاد المعـارك الضـارية ضـد الثـوار الأندلسـيين الـدون خـوان النمسـاوي بنفسـه، الأخ غـير الشرـعي لملـك قشـتالة فيليـب الثـاني، وأسرف في القتـل والتنكيـل بالموريسـكيين، قتـل الأسرى مـن الثـوار بـلا تـردد، اغتصـبت النسـاء وبيعـت كجـوارٍ، وتـم التفريـق بـين الأمهـات وأطفـالهن، الـذين تـم بـيعهم أيضـاً، وأمـر بقتـل الآلاف مـن الصـبيان الصـغار، وفي أجـواء كهـذه عاشـت كنـاري، متنقلـة مـع زوجهـا مـن مكـان إلى آخـر، ومـن معركـة لثانيـة،

وهكـــذا عاشـــا أربعـــة أعـــوام أنجبـــت خلالهـــا ولـــدين أســـميا الأول حامـــداً، تيمُّنـــاً بخالـــه حامـــد بـــن قمـــرين، والثـــاني، عـــمار، باســـم خالـــه الآخـــر، وكـــان العـــام الرابـــع أصـــعبها فقـــد أخمـــدت الثـــورة الأندلســـية الكـــبرى عـــام 1571، ومـــا تـــلاه كـــان عمليـــات مطـــاردة وحمـــلات واســـعة شـــارك فيهـــا أغلـــب القشـــتاليين جنـــودا وغـــير جنـــود لاصـــطياد الموريســـكيين، إذ إنّ الـــدون خـــوان النمســـاوي، ويســـميه الموارِكـــة، بالنغـــل، كونـــه ناتجـــاً عـــن زنـــا الجرمـــاني كـــارلوس الخـــامس ملـــك قشـــتالة بأمـــه، قـــام بعـــد خـــداع الثـــوار وإعطـــائهم وعـــود الأمـــان التـــي لم يـــفِ بهـــا، قـــام بإصـــدار تخويـــل عـــام لكـــل القشـــتاليين، فمـــن يصـــطاد امـــرأة مـــن نســـاء الموريســـكيين المتمـــردين فهـــي ملكـــه، حتـــى الصـــغيرات مـــنهن، وكـــذاك الأطفـــال، أمّـــا الرجـــال، فكـــل مـــن يـــأتي بـــرأس موريسكي فله 20دوقة ذهبية..

وهكـــذا اشـــتهر عنـــد القشـــتاليين مـــا ســـمي بصـــيد الـــرؤوس، فكـــانوا يخرجـــون لحفـــلات الصـــيد جماعـــات، كـــما تخـــرج فـــرق صـــيد الطيـــور أو الغـــزلان ومـــا شاكل ويتفاخرون كل منهم بعدد الرؤوس التي اصطادها..

تـــدخلت خيمـــة البشرـــات بـــإيراد قصاصـــات سرد، أو جمـــل قصصـــية معـــبرة، لكنها ذات علاقة بحكاية صيد الرؤوس..

مبيـد المـواركـة

الدون خوان أوستريا

(مبيد الموار كة)

كان أميرا من قشتالة

لكن أمه لم تتزوج قط

وعلى صدرها – كما يقال – تمخط كارلوس الملك.

الأندلسية مريم

مع صرخات فتاها الذي يمزق الآن

كانت الأندلسية – مريم – تتلوى

ومن على سريرها الذي اعتلاه قشتالي

ارتشقت عينها..

على النافذة.

يعد نقوده

عشرون، أربعون دوقة ذهب، ستون

كان القشتالي يعد الرؤوس المدماة،

لكل رأس عشرون،

كأنما يعد نقوده.

كانوا يتضاحكون

ببرود..

لم يأخذوا معهم سوى رأسه

ومن خلف الأكمة،

كم تمنت لو تلحق بهم، لتقبله!

وكانوا على أفراسهم..

يتضاحكون..

***

أعطت خيمة غرناطة وقتا كافيا للبشرات، شقيقتها وجارتها، وكأن الأمر متفق عليه بينهما، ثم عاودت سرد حكايتها، صيد الرؤوس..

صيد الرؤوس 2

آن لرأسه الأندلسي أنْ يترجل عن جسده، كريم كاسياس، مبدع المايوركا الجميلة، كما يسميه الأندلسيون في إشبيلية وفارس البشرات، أو، ذباح القشتاليين، كما يسميه الشماليون..

في تلك الساعة من الضحى، تحاوشوه، كان جريحا، وكان خائر القوى ويقاتل، على مبعدة منه، خلف الصخور اختبأت كناري وأخفت طفليها، الرضيع في حضنها، كتمت فمه، والآخر، حامد، اصطكت أسنانه، واندس تحتها، رأته، كما تعرفه، بضراوة يقاتل، ثيابه قطعة دم ويقاتل، وكانوا كثيرين، أكثر من عشرة، ورأتهم يقطعون رأسه بوحشية، ربما أغمي عليها للحظات، علق أحدهم الرأس بسرج جواده، ومضوا، كأنهم اصطادوا أرنبا أو حمامة، وكانوا مبتهجين..

تركوا لها جسده ولم يروها، خاف الصغير حامد ولم يعانق أباه، أو جسد أبيه مثلما عانقته أمّه، ثم بعد ساعات جاء إخوة له، أندلسيون، ودفنوه..

بقيت كناري في رعاية علي الخير، كان يرى فيها ابنته فاطمة والتي علم أنها توفيت بعد عبورها إلى العدوة المغربية مع زوجها بيدرو، والد كناري، ووضع كل همه – بعد إخماد الثورة واستشهاد تلميذه ورفيق دربه كريم كاسياس – في النجاة بها وبولديها حامد وعمار، وقرر المجازفة والنزول من الجبال للابتعاد عن غرناطة وعن الأندلس

الصغرى كلها، لكنهم فوجئوا بغارة للقشتاليين لم يتوقعوها، كانت كمينا، سارعوا بالصعود إلى الأعالي، موريسكيون وعوائلهم، لا مجال للاستسلام، يعرفون النتائج، الصخور وعرة، والقتلة وراءهم، أخيرا لجأوا إلى مغارة ضيقة المدخل، واستعدوا للقتال، أدركهم المطاردون، لكنهم عدلوا عن اقتحام المغارة بعد مقتل العديد منهم، ثلاثة جنود أو أربعة قتلوا، حامد لا يتذكر الحادثة إلا غائمة، علي الخير، قص عليه تلك الحوادث وتفاصيلها فيما بعد..

جمع القشتاليون الأغصان، كوموها أمام باب المغارة، كأنهم اعتادوا فعل ذاك، ثم أشعلوا النار، وكان بعض الأغصان رطبا، وامتلأت المغارة بالدخان، علا الصراخ في الداخل والسعال، أما في الخارج فقد ابتهجوا، وعلت صيحات ابتهاجهم، وكانت سيوفهم مشرعة بانتظار من يهرب من النار أو الاختناق، اندفع فتى في الخامسة عشرة، اخترق النار فعلقت به، نحيفا كان وسريعا حين اندفع، فارتبكوا، أخافهم لاندفاعه مشتعلا، ثم تناوشوه، بسيوفهم وتركوه مدمى ويحترق..

سمعوا بعض الاستغاثات من الداخل بالقشتالية، فتبادلوا النكات والضحكات، وبعدها اندفعت أم ورضيعها، وجهها أسود من الدخان، ركضت وهي تصرخ، ومع أنّها اجتازت النار بسلام، لكنهم مزقوها بخفة هذه المرة وبسرعة، رموا للنار أغصانا أكثر، وكان الظلام وشيكا،

فانسحبوا وهم حذرون خوف أن يهاجموا وكانوا يتلفتون، وخلفهم النيران تتراقص ألسنتها أعالي البشرات، كأنها تطاردهم..

من المحرقة نجا القليل من المحاصرين، وقف علي الخير وبيده حامد عند كناري، على صدرها لم يزل نصف أمارو، رضيعها، وقريبا منها نصفه الآخر، ذراعه الصغيرة الناعمة وبعض صدره، وكانا مصطبغين بالدماء والرماد.

جنوب البرتغال، قريبا من البحر، عاش علي الخير ومعه الصغير حامد، بقيا بانتظار بيدرو وحفيده محمد، عاش علي الخير سنوات، ثم ترك حامداً شابا ومات، تركه وفي صدره عبأ كل ما يعرف، علمه القرآن سرا والعربية والخميادوا البرتغالية والقشتالية أيضا، سقى قلبه الصغير رشفة رشفة، الخير والسلام والمحبة للناس ومضى عنه، كأنه معي إلى الآن، قالها حامد لخاله عمار بن قمرين، حين التقاه في البصرة..

))مداخلة بلا اسم: لم يأت بدر للبرتغال ولا محمد حفيد علي الخير، ولم يسمع عنهما أحد، فقد قيل إنّهما غرقا في البحر، وقيل أيضا قراصنة إسبان أسروهما، قتلوهما أو رموهما في البحر((..

عاد المدريديون الأربعة إلى الأضواء بمساهمة جديدة، أكثر من رحب بها أعضاء خيمة إشبيلية، لأنّ الرسامين تناولوا بمساهمتهم قراءة للإشارات المتبادلة بين أربعة نصب في إشبيلية..

1- تمثال حامد الملاح أو خوان رودريغو

2- تمثال فرديناند زوج إيزابيلا

3- تمثال الخيرالدا أعلى كاتدرائية إشبيلية

4- قبر كرستوف كولمبس

عنـون المدريـديون قـراءتهم بـ "كـارمن"، قـد يتضـمن هـذا الاختيـار تكـريما مـا لـزميلتهم الرسـامة كـارمن، لكنـه كـان احتفـاء بـذكرى كـارمن بنـت كـولمبس وزوجـة المـلاح حامـد رودريغـو، لم يـذكروا صراحـة سـبب التسـمية، اكتفـوا بعـرض لـوحتهم الأخـيرة، الرائعـة، وكانـت ختـام المخيم، مخيم المواركة..

كـارمـن

كـارمن لـيس اسـما، كـما أنّـه أوسـع أفقـا مـن كونـه عنوانـا، كـارمن تجسـيد أو اختـزال لأربعـة نصـب تحتفـل إشـبيلية بسـتان ملـوك الأنـدلس وعـروس إسـبانيا باحتضـانها، وإذا كـان المخفـي أو المسـكوت عنـه أكثـر إغـراءً في العـادة مـن المعلـن واللامحظـور، فـإنّ كـارمن الإيطاليـة غـدت محطـا لإشـارات الأربعـة، وملتقـى لمـا يبـث مـن تـردداتهم، كـارمن الراقـدة تحـت قـدمي زوجهـا وحبيبهـا خـوان رودريغـو، آو، حامـد المـلاح الأندلسيـ، والتـي لم ينشِـئ الإسـبان لهـا نصـبا أو رسـما، نراهـا الآن تتطلـع إلينـا وتمـلأ مـدى الإشـارات كلـه بابتسـاماتها وهـي تـرى كرسـتوف كـولمبس والـدها يكتـب بريشـته اسـم خـوان، زوجهـا، كـأول مـن رأى تلـك الأرض، الأرض التـي أغرقـت إسـبانيا وأغرقـت البرتغـال جارتهـا بالـذهب، وأغرقتها الإيبيريتان، إسبانيا والبرتغال، بالدم، الدم والفظائع..

((يقـول كـارلوس الناقـد الأرجنتينـي نقـلاً عـن روايـة إنـيس لإيـزابيلا ألينـدي: إنّ الإسـبان إذا أرادوا تحريـك مفـرزة مـن فرسـانهم في بـراري أمريكـا الجنوبيـة، يقـوم كـل فـارس باختيـار فتـاة مرضـعة أو أكثـر مـن الهنـديات بعـد أن يجـبروهن عـلى تـرك أطفـالهن لمصـيرهم، قـد يقـذف الفـارس بالرضـيع جانبـا فيتهشـم أمـام آمـه، أو تسرـع بتركـه أو إعطائـه لأقـرب هنديـة، تـربط المرضـع الهنديـة بحبـل ويجرهـا الفـارس خلـف جـواده ماشـية، يفعلـون كـل هـذه البشـاعة والوحشـية والقسـوة، فقـط للاحتيـاط،

لكي يرضعوا أثداءَهن إذا تعرضوا للجوع أو العطش في وسط الصحراء.))

((حول تعليق الأرجنتيني ذكرت كارمن لوحة كلاسيكية يظهر فيها عجوز سجين جاث على ركبتيه أمام ابنته التي كانت تجلس على مصطبة وتنحني على أبيها وهو يرضع ثديها، كانت تطعمه..

وعلق مثقف من شيلي: ثمة فرق كبير بين ابنة تزور أباها السجين لتنقذه من الموت جوعا أو عطشا وبين أسيرة ينتزع منها رضيعها بالقوة وتساق ماشية عبر الصحراء لتطعم فارسا قاسيا لا تعرفه، وقد لا يحتاج إليها وتموت هي من الجوع أو الإرهاق، أو من الحنين إلى رضيعها ....))

كارمن، إذن، تعني شعوبا امّحت ألوانهم، شطبت برصاص الإسبان ووحشيتهم، المايا، الأزتيك، سلالات الهنود الحمر العريقة، وتعني وهي تتنقل بإشاراتها بين تمثال فردينالد وبين تمثال خوان الموريسكي، زوجها، تعني الأندلس..

كارمن عند قدمي حامد بن الحاج هلال ترقد، ووجهها تجاه الشرق، إلى الجنوب قليلا، هل ستبقى كارمن هكذا، تصلي تجاه الكعبة إلى الأبد؟

قراءاتنا الأربع هي كارمن وإن توزعتها الأنصاب الأربعة..

(1)

ولـــدت الكاتدرائيـــة الأكـــبر في العـــالم الكـــاثوليكي، كاتدرائيـــة إشـــبيلية، أو كاتدرائيـــة سـيفيا، ولـدت مـن رحـم مسـجد، عنـاق وأمومـة، هكـذا نقرؤهـا نحـــن في خيمـــة مدريـــد، ولنـــا أن نهمـــس بهـــا في أذن المدينـــة العاصـــمة، مدريـد.. ثمـة مسـجد في اسـطنبول، المسـجد الأعظـم، أنجبتـه كنيسـة أيضـا، كنيسة أيا صوفيا، بعضنا أنجب بعضا، وكلنا للسماء..

(2)

الخيرالـــدا أيضـــا، فـــارس الريـــاح، رفعتـــه المئذنـــة، وبـــدأت حكايـــة التمثـــال المشـــير إلى جهـــة الـــريح في ليـــالي بغـــداد، ألـــف ليلـــة وليلـــة، ولـــه، عـــن طيـــب خـــاطر، هـــزت إشـــبيلية تفاحاتهـــا الأربـــع فتســـاقطن، هزهـــا الزلـــزال فتســـاقطن ليتربـــع الخيرالـــدا عاليـــا، وإلى محلـــه ربـــما، يتمنـــى فردينالـــد، لـــو يطـــير، يتمنـــى، لكنهـــا الرايـــة المثقلـــة بـــدمهم، دمـــاء الغرنـــاطيين الـــذين ذبحـــوا تحـــت رايتـــه، تثقله، وسيظل هكذا، مثقلا بدماء ضحاياه ويتمنى..

وهنـــاك في الشرـــق أيضـــا، في روســـيا، ســـيتلقف بوشـــكين مـــا قـــرأه في الليـــالي البغداديـــة أو نقلـــه عـــن واشـــنطن إيرفنـــغ ويكتـــب عـــن ديـــك الريـــاح، أنجـــب الخيرالـــدا ديكـــا صـــائحا، لا شـــك أنـــه كـــان وريثـــا للمـــؤذن فجـــرا، لـــذا بـــاض الخيرالدا فولد ديكا، حبة حبة سيلتقط الديك الذهبي رمانته..

وعلى مبعدة كان فردينالد يردد: سنلتقط غرناطة، حبة حبة كالرمانة.

عاش الديك آكل الرمان الروسي

وفيفا فردينالدو آكل غرناطة

كل شيء أحمر

كل شيء أحمر في غرناطة

اسمها..

وقصرها..

علم الثوار الموريسكيين في حي البيازين، أحمر..

وعلى باب الرمان، تحت راية فردينالد،

دماء الغرناطيين، لم تبهت بعد.

((ترى هل سيعزف كورساكوف أوبرا الديك الذهبي لو كان يعلم بكل هذي الدماء))

(3)

يرقد كولمبس، يرقد لا أكثر، وبحسرة، فالخارطة البحرية التي أباحها لقشتالة من أرض وذهب وهنود، وقع عليها أمريكو باسمه ونسي

كـــولمبس، هكـــذا، كلعنـــة الأهرامـــات أبعدتـــه غرناطـــة عنهـــا، يتطلـــع الآن إلى مســـاعده رودريغـــو، ينتصـــب لـــيس بعيـــدا عنـــه، تمـــر بـــه إشـــبيلية صـــباحا، وتنســـى كـــولمبس، حتـــى النســـور التـــي رافقـــت أشرعتـــه إلى هنـــاك كتميمـــة حـــظ، تحـــوم الآن حـــول الخيرالـــدا ولا تحـــط عليـــه ولا تـــذرق حتـــى، كـــأنما لم يكن كرستوف كولمبس جنديا دخل غرناطة مع قوات جنوى..

لعلهـــا ذات اللعنـــة التـــي أهلكـــت ثلثـــي ســـكان إشـــبيلية القشـــتالية منتصـــف القرن السابع عشر للميلاد؟

المـــؤرخ خوســـيه ماريـــا دي ســـينا ســـيذكر - أيضـــا - زلـــزالاً مـــدمراً بعـــد قـــرن آخر، لعنة من هذه؟

(4)

رودريغـــو، حامـــد، المـــلاح الأندلسيـــ، يتـــذكر الثلاثـــة، هـــلالاً وبـــدراً، أبـــاه وشقيقه وابنته قمرين، ويبكي..

الإيطالية كارمن ترنو إليه وتبكي..

ترى هل تذكر الآن أباها، كولمبس؟

الكـــل نســـوه، نســـوا كرســـتوف كـــولمبس، فـــاتح الطريـــق لإبـــادة الهنـــود ..كلهـــم نسوه

لكن خوان رودريغو لم ينس تعاليم أبيه، تذكرها حين مات زميله البحار وكان موريسكيا أيضا، فدفن خوان صاحبه الموريسكي هناك في أول الجزر، تذكر الحاج هلال والده وهو يدفنه، ولم ينس القبلة.

بعض المخيم لم يستسغ ما قدمته خيمة مدريد، لأنهم كما قالوا غايروا به السرد السائد، لكن آخرين، عدوا قراءة المدريديين ممتعة، وتابعوا إيماءاتها، كانت ثرية وموحية كما قالوا، كأني أراك صديقي مستمتعاً أيضا، إذن لأحاول رسم لوحتهم الأخيرة لك..

من فكرة اللوحة المزدوجة أو المتحركة التي أبدعها يحيى المجريطي وأعاد تنفيذها بموضوع مختلف مواطنه وسميه يحيى المدريدي، أنجز الرسامون الأربعة معا لوحة لا يمكن توصيفها بدقة على أنها لوحة وكفى، هي مجموعة لوحات تتوالد دون توقف، لوحات أكثر من أن تعد، تماما، مثلما الطيف الشمسي ـ مجموعة ألوان لا يمكن عدها، لكن بعضها يكمل بعضا، وإن كانت في نفس الوقت واضحة الاختلاف والتباين، باختصار كانت لوحات تتحرك مشاهدها على الشاشة وتتغير، تشد المتلقي ثم تختفي، لتولد أخرى محلها، تتمازج ببعضها، وبعضها يولد من بعض، لكنها جميعا تشكل بانسجام لوني بديع اللوحة الأم، وكان اسمها..

وردة السلام: مايوركا

المشهد الذي لم ينسه الموار كة حتى بعد أن حزموا خيامهم وحقائبهم وعادوا للشتات من جديد، هو مشهد الخيرالدا الجديد الذي رسمته أنامل المدريديين على الشاشة الكبيرة وسط المخيم..

كما تتشكل غيمة خفيفة تشكلت كاتدرائية إشبيلية، بانت الأرض أولاً، رشتها بنات أندلسيات بالخضرة، فامتلأت ورودا وألوانا، قبلها، مرّ فينيقيون، مرّ هاني بعل، ثم إيبيريون أوائل، ومر القوط الجرمانيون، وحل لثمانية قرون وأكثر، المسلمون..

نما المبنى كما تنمو الزروع بتأن، مسجد إشبيلية أمامنا، بأعمدته وبهو البرتقال فيه وأروقته، وتصاعدت المئذنة، وعلى سلمها الملتوي يصعد المؤذن على فرسه، يصعدها خببا ويؤذن للصلاة، آسر صوت المؤذن، شق اللوحة وانتشر في المخيم، وكأشجار التفاح في إشبيلية، أثمرت المئذنة، تفاحات أربعاً، إنها من ذهب..

ثم اندفع الشمال الإسباني، رسمته اللوحة يندفع، عبر جبال البيرانس اندفعوا، ومن أشتوريا، من صخرة بلايو والكوفا دونكا، ومن البحر، ورنت الأجراس، أجراس الكنائس، جرس الكاتدرائية الكبير، شدت المخيم دقاته، وارتعش، وفي مشهد مؤثر، تهادت كأنها تطير، تفاحات الذهب وتحت الكاتدرائية سقطت، ثمة حرائق صغيرة في ميدان

إشبيلية، وثمة استغاثات، وثمة بشر يحترق، امتلأت المشاهد بالنيران المقدسة على اتساعها، وكان الخيرالدا فارس الرياح شيئا فشيئا يرتفع، يقص خطى المؤذن صاعدا، وبرمحه يطعن كل الجهات، يهش الحمامات كي لا تحط عليه، وفي لمحة، فزَّ منها الحضور جميعا، اختفى الخيرالدا المسلح، هدمه المدريديون بريشاتهم، وبدلا عنه، نحتوا تمثالا لمايوركا جميلة ساحرة، حلت محله، كمايوركات كريم كاسياس كانت، اطمأنت قلوب الحاضرين لها، رفرفت حمائم حولها، كأنما تطوف، وكانت جمل بكل لغات إيبريا تدور، دوار المخيم تدور، كلمات السلام، وكانت الأخيرة منها تقول ومعها كانوا يرددونها

السلام لإسبانيا، وطني الحبيب

السلام على الأندلس..

وحل السلام..

شاعت نسائم السلام في المخيم وعم التسامح مع ما عرض من مشاهد وحكايات وراح الجميع موارکة وإسبان، قشتاليون وكتالونيون وبشكنس وأندلسيون، بعضهم يهنئ بعضا على نجاح المخيم، ووسط هذه المشاعر الطيبة وزعت آخر المشاركات التي لملمت الحكاية، حكاية قمرين، أم الحكايات، وكانت لخيمة العدوة المغربية، وفاءً لأهلها جعلوها مسكاً للحكاية..

ظــل حامــد بــن كنــاري يتســقط الأخبــار حتــى عــرف أنَّ جدتــه قمــرين في هولنــدا، ولم يكــن قــد رآهــا مــن قبــل، لكنــه كــان كمــن عــاش في أحضــانها مــن كثــرة مــا تحــدث لــه عــلي الخــير عنهــا، خاصــة حــين أخــبره برحيلهــا إلى هولنــدا، وأوصــاه بالالتحــاق بهــا حــين حضرــه المــوت، فــأبحر إلى هنــاك سرا، وكانــت البرتغــال في تنــافس وحــروب بحــار مــع هولنــدا بعــد ســيطرة الإســبان عــلى البرتغــال وتوحــدهما تحــت حكــم مدريــد عــام 1580 ومــا بعــدها، وهنــاك، في لاهــاي، علــم برحيلهــا مــع خالــه عــمار إلى البصرــة، وكــان يتــابع أخبارهــا مــذ رحلــت، ثــم قــرر اللحــاق بهــما، فعــاد أولاً إلى البرتغــال، لم تــذكر المصــادر التاريخيــة ســبب عودتــه، ثــم رحــل مــع ســفن الأرمــادا البرتغــالي إلى خلــيج البصرــة، وكــان معــه عــلى نفــس الســفينة المــؤرخ والرحالــة البرتغــالي بيــدرو تخســيرا، وكــان هــذا يهوديــا مكثلكــا، رتــب ســفره لتحاشي محاكم التفتيش بعد تصاعد نشاطها في البرتغال أخيرا..

صــارا صــديقين، وكــان حامــد متعمــدا صــداقته، فمــن خلالــه بلــغ البصرــة، وهنــاك بحــث عــن جدتــه قمــرين، وكانــت قــد ماتــت، والتقــى بخالــه عــمار، أفضىــ كــل مــنهما للآخــر بــما يعــرف، كــان حامــد قــد تجــاوز الخمســين، وكــان أصــغر مــن خالــه بثلاثــة عشرــ عامــا، بقيــا كــأخوين، وانتهــت أخبارهمــا هنــاك في البصرــة، لكــن ثمــة نتــف معلومــات متفرقــة تشــير إلى أنّ حامــداً فــارق خالــه أشــهرا وذهــب مــع بيــدرو تخســيرا إلى مــدينتي النجــف وكــربلاء وزار أضرحــة أهــل البيــت علــيهم الســلام كــما أوصــاه عــلي الخــير حــين وفاتــه، وثمــة خــبر يقــول إنّ حامــدا تــزوج شــقيقة زوجــة خالــه، وعاشــت العائلتــان في دار

واسعة واحدة، لم يسموا صبيانهم بغير هلال وبدر وحامد وعمار وعلي وكريم وسموا بناتهم جيلا بعد جيل قمرين وكناري وفاطمة..

هل أدركت صديقي الآن، لماذا سماني أبي بعمار، عمار إشبيليو؟

أنا لم أستطع على الرغم من كل أبحاثي وتدقيقاتي أنْ أعرف لمن أنتسب تحديدا، لحامد بن كناري أمْ لعمار بن قمرين؟ الذي كان معروفا بعمار إشبيليو، لقب به أثناء وجوده في إشبيلية حيث اعتاد الموريسكيون مناداته به..؟

كما أعترف بأني عجزت عن التحديد الدقيق، عمن كان عمار إشبيليو يروي، عن أيّ حامد؟

حامد بن قمرين الذي أخذته محكمة التفتيش في إشبيلية في بلد الوليد أم حامد بن كناري الذي سكن البصرة؟

كلاهما كان مؤلفا، وكلاهما كتب الكثير عن سيرة العائلة وتاريخ الموريسكيين، وكل منهما كان أديبا وكاتبا للقصص والحكايات..

فمن منهما حامد الأندلسي ـ الذي كان عمار إشبيليو الأول يروي عنه، وينسب كتاباته إليه؟

بعـــض الأبحـــاث تشـــير إلى أن المقصـــود هـــو حامـــد بـــن قمـــرين الـــذي يـــذكره سرفـــانتس، أكثـــر مـــن مـــرة، كمصـــدر لحكاياتـــه عـــن دون كيشـــوت، ويســـميه، سيدي حامد العربي..

لكـــن حامـــداً الآخـــر، بـــن كنـــاري، كـــان كخالـــه مؤلفـــا بارعـــا وكاتبـــا جيـــدا، وقـــد عـــرف أدقّ التفاصـــيل عـــن ســـيرة عائلتـــه وتـــاريخ الأنـــدلس والموار كـــة من مربيه وأستاذه علي الخير..

حدائق الأندلس

انتهت الرواية، أو هكذا ظننت، فخرجت بأولادي للتنزه، كما وعدتهم، فقد تأخرت في إنجاز وعدي لهم باصطحابهم للتنزه في حدائق الأندلس، بمحاذاة ميناء المعقل في البصرة، أخبرني عمار إشبيليو حين تدفقت رسائله وحكاياته على بريدي الإلكتروني، والآن، حلت حبال مخيمهم، المواركة، وعاد كل إلى بلده، كنت كمن خرج من حمام بخار ساخن، أشعر بالخفة والارتياح، فقد انتهت الرواية، رواية (مخيم المواركة) هكذا سماها مؤلفها، عمار إشبيليو، فرحي وارتياحي انعكس على لعبي مع الأولاد في حدائق الأندلس، وفجأة رن هاتفي بنغمة الإنترنيت الخاصة به، بـ عمار إشبيليو، وفتحت رسالته..

((السلام عليكم، صديقي العزيز، أنا الآن أتنزه في حدائق الأندلس، قريبا من ميناء المعقل، وألهو مع أولادي، أين أنت الآن؟ !))

-انتهت-

بعض شخصيات الرواية

1- الحاج هلال بن سعيد القرطبي (اسمه الإسباني، كروس رودريغو)

2- بدر بن الحاج هلال الملقب ب بدر البشرات (بيدرو رودريغو)

3- حامد بن الحاج هلال – الملاح الأندلسي (خوان رودريغو)

4- حامد بن بدر بن الحاج هلال (خوان رودريغو)

5- بدر بن حامد بن بدر بن الحاج هلال– زوج قمرين (بيدرو + مارتينو + ماركوس)

6- قمرين بنت حامد/ خوان رودريغو الملاح الأندلسي (كامرين)

7- حامد بن قمرين (خوان)

8- عمار بن قمرين (أمارو)

9- كناري بنت قمرين

10- حامد بن كناري

11- عمار بن كناري

12- زكي أو كريم كاسياس أو زاكاو

13- علي الخير

14- كولاني أو بيتر باستن الهولندي (قتل أو غرق في خليج البصرة)